الحُبُّ وَالجمَالُ

عند العرب

صفات الحب وأغراضه وأنواعه ومختارات وطرائف مما قيل فى العشق والجمال
والغزل ووصف النساء ومقاطيع رائقة ونوادر فائقة للشعراء العشاق
من كل لفظ شائق بديع ومعان كأنها زهر الربيع

بقلم

العلّامة المحقّق المغفور له

أحمد تيمور باشا

دار الكاتب العربى

١٩٨٢

تمهيد لمقدمة الكتاب[1] :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى حكم بعدله فقهر ، ودبّر بلطفه فيسر ، وألّف بين مَنْ شاء مِنْ أحبابه وجعلهم أحباباً ، وجعل لمجالس الأنس من الفضلاء والندماء ألبابا ، فهم يتذكّرون النوادر والأخبار ، ويغتنمون فى تلك الأوقات منادمة الأصحاب وتناشد الأشعار . أحمده على كلّ نعمة ، وأشكره إذ جعلنا من خير هذه الأمة ، وأستغفره من كلّ ذنب يوجب النقمة ، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لاشريك له ، شهادة تجيرنى من الخطايا والزلل ، وأشهد أنّ محمّدًا عبده ورسوله المبرأ من النقص والخلل ، صلّى الله عليه وعلى آله الطّيبين الطاهرين وأصحابه التابعين وتابع التابعين . وبعد : فهذا مجموع يشتمل على فصول تحوى مقاطيع رائقة ، وقصائد فائقة ، من كلّ لفظ بديع ومعان كأنها زهر الربيع . .

---

(١) عثرت اللجنة بين مخلفات المؤلف على الجزء الأول من مقدمة لهذا الكتاب ، ولم نجد أثراً لبقية أجزاء المقدمة . ولعله رحمه الله ترك استكمالها حتى يتم جميع مواد الكتاب . ولما لم يمهل الأجل تحقيق ما توخاه ، آثرنا إثبات هذا الجزء من المقدمة كما وجدناه . .

دعاء مأثور

من أفضل ماسئل الله ـ عزّ وجلّ ـ حبّه وحبّ من يحبّه وحبّ عمل يقرّب إلى حبّه . ومن أجمع ذلك أن يقول المرء فى دعائه :

اللهم إنى أسألك حبّك ، وحبّ من يحبّك ، وحبّ عمل يقرّبنى إلى حبّك .

اللهم ما رزقتنى مما أحبّ ، فاجعله قوّة لى فيما تحبّ . وما زويت عنّى مما أحبّ ، فاجعله فراغاً لى فيما تحبّ .

اللهم اجعل حبّك أحبّ إلىّ من أهلى ومالى ، ومن الماء البارد على الظمأ .

اللهم حبّبنى إليكَ وإلى ملائكتكَ وأنبيائكَ ورسلكَ وعبادكَ الصالحين .

اللهم أحْىِ قلبى بحبّك ، واجعلنى لك كما تحبّ .

اللهم اجعلنى أحبّك بقلبى كلّه ، وأرضيك بجهدى كلّه .

اللهم اجعل حبّى كلّه لك ، وسعيى كلّه فى مرضاتك .

* * *

كلمة اللجنة

بقلم الأديب الشاعر

الأستاذ عبد السلام شهاب

عضو اللجنة التيمورية والمحرر بالأهرام

لم يكن عجباً ، أن يعنى بأمر الحبّ والجمال ، عالم أديب ، حجّة فى اللغة والتاريخ وغيرهما من العلوم والفنون ، واشتهر إلى ذلك بالتزام الوقار والمحافظة على التقاليد الدينية والاجتماعية ، هو المغفور له العلامة « أحمد تيمور باشا » صاحب هذا الكتاب .

فمن قبل ذلك بمئات السنين ، عنى بأمر الحبّ والمحبّين ، كثير من أكابر العلماء والأدباء ، وذوى المكانة الرفيعة والكلمة الموقرة المطاعة ، فى شئون الدين وشئون الدنيا على السواء .

وسيطالع قراء الكتاب ، فيما تضمّنه من آراء وأحاديث ونوادر وأشعار وغيرها ، أسماء عشرات من هؤلاء وهؤلاء ، وفى مقدمتهم : أنبياء وخلفاء وسلاطين ، وفلاسفة وفقهاء ومتصوفون، بل سيجدون كذلك أن موضوع الحبّ والمحبين قد اختصّ بكتاب كامل من أهمّ كتب التراث العلمىّ والأدبى العربىّ ، هو كتاب « طوق الحمامة فى الألفة والألاف » الذى قام بتأليفه منذ أكثر من تسعمائة سنة أحد أئمة المسلمين المشهود لهم بالورع والتقوى والاقتداء ، هو الوزير الفقيه الفيلسوف أبو محمد علىّ بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسىّ ، وقد فصّل فيه عناصر الحبّ وصفاته وآفاته ، وساق أمثلةً من تجاربه الخاصّة فيه ، وملاحظاته على المحبّين من أهل عصره ومخالطيه ، وأكّد بالأدلّة القاطعة المقبولة ، أن « الحبّ ليس بمُنكَرٍ فى الديانة ، ولا بمحظور فى الشريعة » .

وتعرّضت كتب أخرى كثيرة ، لهذا الموضوع الشائق ، منها كتاب « روضة المحبين ونزهة المشتاقين » ، للعلّامة الشيخ شمس الدين أبى عبدالله محمد بن أبى بكر بن قيّم الجوزية ، المتوفى سنة ٧٥١ هـ .

والمستقرئ لتواريخ الأمم والشعوب ، قديمها وحديثها ، وكبيرها وصغيرها ، لابدّ واجدٌ أنّها كلّها ـ دون استثناء ـ تشترك فى معرفة الحبّ ومعاناته ، وفى تقدير أهمّيته فى حياة الفرد والمجتمع. ثمّ هو إلى جانب ذلك لن يفوته أن يلحظ أن « الحبّ والجمال عند العرب » لهما مقام أسنى ومنزلة أعظم . فإذا هو التمس أسباب هذا ودواعيه ، فما أيسر أن يتبيّنها فيما توافر للعرب فى بيئتهم الخاصة ، من فطرةٍ سليمةٍ وإحساسٍ مرهفٍ ، ومن تذوّقٍ دقيقٍ واعٍ لما يحيط بهم من روائع الجمال وبدائعه ، متمثّلةً فى مناظر صحرائهم ، بما اشتملت عليه أرضها من رمالٍ وتلالٍ وجبالٍ مختلفة الألوان ، وبما اشتملت عليه سماؤها من غيُوم ونجوم ، تسحر العيون والألباب .

فإذا أضيف إلى ذلك ما امتاز العرب به من كثرة الترحال والانتقال انتجاعاً للرّزق ، ومن فصاحة اللسان والجنان ، والقدرة على التعبير عن عواطفهم ومشاعرهم بصدقٍ وإخلاصٍ ، فهذان برهانان آخران على أنّهم خُلِقوا ليكونوا أحقَّ بالحبّ وأهله ، وأقدر على حمل تبعاته وأصدق تصويراً له وتعبيراً عنه .

وقد تغنّى بجمال الحبّ وحبّ الجمال فطاحل الشعراء العرب ، منذ عصر الجاهلية . ولم تخل من الحديث عن ذلك أو الاستهلال به أكثر القصائد الكبرى التى قدّسها العرب الجاهليون وعلّقوها على الكعبة تشريفاً لأصحابها ، وتقديراً لبلاغتها فيما أكّد كثير من الرواة .

وفى أشهر هذه « المعلقات » يقولُ امرؤ القيس بن حجر الكِنْدىّ :

أفاطِمُ : مهلًا ، بعضَ هـذا التَّدلُّلِ ... وإن كُنْت قد أزمعْت صَرْمى فأَجْمِلِى
أَغرّكِ مِنّى أنّ حبَّكِ قَاتِلى ... وأنّكِ مَهْمَا تأمرى القَلْبَ يَفْعَل ؟

ويفتتح الحارث بن حلّزة اليَشْكُرِيّ معلّقته بقوله فى حبيبته « أسماء » :

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

أمّا طَرَفَةُ بن العبْد ، فقد أكمل معلّقته مائة بيت ابتدأها بالشوق إلى « خَوْلَةَ » محبوبته ، فذكر أطلالَ ديارها ، ومراكبها التى حملتْها بعيدًا منه ، ومراكبَه التى يمضى عليها هائمًا مشتاقاً إلى اللقاء ، ومطلع معلقته :

لِخَوْلَةَ أطْلَالٌ ببرقة ثَهْمَدِ تلُوحُ كَبَاقِى الوشم فى ظاهر الْيدِ

ويقول عنترة بن شدّاد العبسى فى معلّقته ، موجّهاً الخطاب إلى عبلة ابنة عمّه :

ولقد ذكرتُكِ والرِّمَاحُ نَوَاهِلٌ مِنِّى وبيضُ الهِنْدِ تَقْطُرُ مِنْ دَمِى
فوَددتُ تَقْبِيلَ السُّيُوف لِأَنَّهَا لَمعَتْ كَبَارِقِ ثَغْرِكِ الْمُتَبَسِّمِ

ويفتتح النَّابغةُ الذُّبْيانِى معلقته ، بذكر « مَيَّة » حبيبته وديارها التى أقفرت من أهلها فيقول :

يا دَارَ مَيَّةَ بالْعَلْياءِ فالسَّنَدِ أقْوَتْ وطالَ عليها سالف الأمَدِ
أَضْحَتْ خَلاءً وأضحى أهلُها احْتَمَلُوا أخْنَى عليْها الذى أخْنَى على لُبَدِ

ويقول ذو الأُصبَع العدوانى ، يشكو فراق محبوبته « رَيَّا » :

يا مَنْ لِقَلْبٍ طويل البثِّ محزونِ أمْسَى تذَكّر ريَّا .. أمَّ هارونِ
فقد غنِينا وشَمْلُ الدَّارِ يَجْمَعُنا أطيعُ رَيَّا ، ورَيَّا لا تعاصينى
تَرْمى الوُشَاةَ فَلا تخطى مقاتِلَهُمْ بصادِقٍ من صَفَاءِ الوُدِّ مكنُونِ

ويقول السَّموءَل بن عادِياء من قصيدةٍ له يشكو فيها مرارةَ العذل ، ويؤكد أنّه لن ينتهى عن حبِّ صاحبته مهما يَطُلْ عذلُه ولومه :

أَعاذلتى : ألَا ـ لا تَعذِلينى فَكَم مِنْ أمر عَاذِلَةٍ عَصَيْتُ
دَعينى وارشُدِى إنْ كُنْتُ أغوى وَلَا تَغْوى ـ زَعمتِ ـ كما غَوَيْتُ

أعَاذِلُ : قد أطلت اللَّوْمَ حتَّى لو أنِّى مُنْتَهٍ . . . لقـد انْتَهَيْتُ
وحَتَى لَوْ يـكُونُ فتى أنَاسٍ بكى من عَذْلِ عاَذِلِه ، بـكَيْتُ

وأى تعبير عن الحبّ ، أرقُّ وأعذبُ وأنفذ إلى القلوب قبل الأسماع ، مما عبّر عنـــه الشاعر الجاهلى المنخل اليشكرى فى بساطة محبَّبَةٍ ، فقال :

وأحبُّها ، وتحبُّنى ويحبُّ ناقتَها بعيرى !

وإذا كان هذا هو شأن « الحبّ عند العرب » فى جاهليتّهم فلا شكّ فى أن حظهم منه قد أصبح أوفر، بعد أن جاء الإسلام فألّف بين قلوبهم ، ورقّق من طباعهم وسما بهم درجات فى تنظيم العلاقات بين الجنسين . وقرّر للمرأة حقوقاً لم تـكن لها قبله ، وحرَّم البغاء . وأوجب معاشرة النساء بالمعروف ، أو مفارقتهنّ بالمعروف .

وقد استوصى النبي عليه الصلاة والسلام بالنساء خيراً ، وقرّر أن « خير متاع الدُّنيـا المرأة الصالحة » . وقال : « حُبِّبَ إلىّ من دنياكم ثلاث : النساء والطِّيبُ وقُرَّةُ عينى فى الصَّلاة » .

وجاء الخلفاء الراشدون ، فنهجوا نهجه ، واتَّبعُوا سنّته . وأصبح معنى الحبّ مرادفاً لمعنى العفّة والرّغبة فى استـكمال الدين عند المسلمين .

وقد روى أن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أصاب فى زمانه ناساً من هُذَيلٍ ، فخرجت جارية منهم ، فاتبعها رجلٌ يريدها عن نفسها ، فرمته بحجر ففضَّتْ كبده . فقال عمر : هذا قتيل الله ، والله لا يودى أبدا .

كذلك أفتى عبـــد الله بن عبـاس رضى الله عنهما ـ بأنّ قتيل الهوى لا دية فيه ولا قصاص .

وفى أخبار الوالى العربى زياد بن أبى سفيان ، أنه قال لجلسائه يوماً : من أَنْعَمُ الناس عيشة ؟ قالوا : أمير المؤمنين . فقال وأين ما يلقى من قريش ؟ قالوا : إذن أنت . فقال : وأين ما ألقى من الخوارج والثغور ؟ قالوا : فمن أنعمُ النَـاس عيشة أيُّها الأمير ؟ فقال :

رجل مسلم ، له زوجة مسلمة ، لهما كفاف من العيش . وقد رضيت به ورضى بها ، لا يعرفنا ولا نعرفه .

وقد حرص أكثر الشعراء العرب بعد الإسلام على التزام ما كان عليه أسلافهم قبله ، من استهلال قصائدهم بالغزل والتشبيب بالنساء .

وروى أن النبيّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أعرب عن استحسانه هـذا التقليد الأدبى ، حينما أنشده الشاعر كعب بن زهير قصيدته التى مدحه فيها واستهلها بقوله :

بانَتْ سُعَادُ فَقَلْبي الْيومَ مَتْبُولُ مُتَيَّمٌ إِثْرَها لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ
ومَا سُعَادُ غَدَاةَ الْبَيْنِ إذ رَحَلُوا إِلّا أَغَنُّ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ

وكان الخليفة العباسى هرون الرشيد يقسّم أعوام حكمه : عاماً لحجّ البيت الحرام ، وعاماً للجهاد فى سبيل الله . ومع هذا كان يستحسن أشعار الغزل ووصف لواعج الحبّ ، ويجيز عليها ويرويها . بل كان هو نفسه فيما يقول الرواة يسابق الشعراء فى هذا المضمار فيقول :

مَلَكَ الثلاثُ الآنساتُ عِنَانِي وَحَلَلْن من قلبي بكلِّ مَكَانِ
مَالِي تطاوعنى البريّةُ كُلُّهَا وأُطيعهنَّ وهن فِي عِصْيانِي ؟
ماذَاكَ إلا أنّ سلطان الهوى وهُوَ الضَّعيفُ أعزُّ من سُلْطانِي !

وقد حفل تاريخ الأدب العربى بروائع خالدة من قصص الحبّ وأبطاله وبطلاته ، وكثير منهم ينطبق عليهم القول المأثور : « من أحبَّ فعفَّ فماتَ ، مات شهيداً » وما زالت قصصهم تضرب مثلًا على الإخلاص والوفاء .

من هؤلاء : مثلًا : جميل بن معمر صاحب بثينة الذى يقول فيها :

وإنى لأرضَى مِنْ بُثَيْنَة بالذى لو ابْصرُه الواشى لَقَرَّتْ بلَابلُه
بـ «لا» ، وبألّا أستطيع ، وبالمُنى وبالأمل المرجُوِّ قد خابَ آمِلُه
وبالنظرةِ العَجلَى ، وبالحولِ تَنقَضى أواخرُه لا نلتقى وأوائله

وكان يرضى منها بالقليل كما أشار فى البيتين ، وكما قال فى بيت آخر :

أُقلِّبُ طَرفى ، فى السماء لعلَّهُ   يوافق طَرفِى طرفَها حين يَنْظُرُ

ومنهم جميل وبثينة ، من قبيلة عذرة المشهورة بالعشق والجمال ، وقد تحابّا صغيرين ، فلما كبر خطبها ، فرفض أهلها أن يزوّجوها ، ومنعوه رؤيتها ، وهددوه بالقتل فلم يعبأ بتهديدهم ، ولامه أبوهُ على استهتاره ومخاطرته بنفسه ، فردّ عليه قائلًا :

« ياأبتِ : هل رأيت أحداً قدر أن يدفع عن قلبه هواه ، أو مَلَك أن يسلّى نفسه . والله لو قدرت أن أمحو ذكرها من قلبي ، أو أزيل شخصها من عينى ، لفعلْتُ . ولكن لاسبيل إلى ذلك ، وإنما هو بلاء قد بليت به لحين قد أتيح لى . على أنى أمتنع عن طروق هذا الحىّ والإلمام به ولو مِتُّ كمَدًا . وهذا جهدى ومبلغ ما أقدر عليه . وما زال على حبّه لها حتّى قضى أسًى ولوعةً لفراقها .

ومنهم قيسُ لُبْنَى . وكان قد تزوّجها . وسعدا بتبادل الحبّ حيناً ، ثمّ طلّقها نزولًا على إرادة أبيه . ولم ينفعْه الندم بعد ذلك فهام على وجهه ينشد السلوان . لكنه لم يستطع صبراً على فراقها ، وظلّ يذكرها حتّى مات .

ومنهم توبة بن الحميّر وصاحبته ليلى الأخيليّة ، وفيها يقول :

ولو أن ليلى الأخيلية سَلَّمَتْ   علىّ ودُونِى تُرْبَةٌ وصَفَائِحُ

لسلَّمتُ تسليمَ البشاشة أو .. زَقَا   إليْها صَدًى من جانبِ القبر صائِحُ

ومنهم كثيّر وصاحبته عزَّة ، وعمر بن أبى ربيعة وصاحبته الثريا ، وقيس بن الملوّح مجنون ليلى ، وقيس بن ذريح وصاحبته لُبْنَى ، وعروة بن حزام وعفراء ، وكثير غيرهم من العشاق العرب فى مختلف العصور والبلدان .

* * *

ولقد كان صاحب هذا الكتاب ، يعدُّ فى طليعة المشهود لهم بالتعمق فى دراسة تاريخ العرب وعلومهم وآدابهم وفنونهم، وسبق أن أخرجت له لجنة نشر المؤلفات التيمورية طائفة من الكتب القيمةِ فى جمهرة من هذه الفنون والآداب والعلوم ، آخرها « الموسيقى والغناء عند العرب » أما هذا الكتاب « الحبّ والجمال عند العرب » فقد عثرت اللجنة على أكثر أصوله بخطّ المؤلّف بين ما خلّف من مخطوطات لم يقدر لها أن تطبع فى حياته . وقد جمع رحمه الله هذه الأصول من مئات الكتب والمخطوطات التى اشتملت عليها مكتبته . وترك جزازات أشار فيها إلى موضوعات مماثلة فى كتب ومخطوطات أخرى كان يعتزم إضافتها إلى الأصول ، فتولّت اللجنة هذه المهمة لتكمل الكتاب عَلَى النحو الذى أراده .

والكتاب يشتمل على عشرة أبواب : أوّلها فى « صفات الحبّ وأغراضه » . وفيه فصول متفرقة أهمُّها عن ماهية الحبّ ومعنى الحب والمحبوب وعشق الشرف وعشق الجمال وأحلام المحبّين والحبيب الأوّل والحبيب الآخر والحبّ مع اختلاف الدّين . . . .

والباب الثانى عن « أنواع الحب » وتندرج تحته فصول عن حبّ الولد وحبّ الأيامى واليتامى ، وأمثال فى الحبّ ، وحجة بالغة .

والباب الثالث عن « حبّ الأزواج » وفيه فصول عن زواج النبى من خديجة وحبّها له وتقديره لها وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة ، على اختلاف ألوانه .

والرابع عن « الشعراء العشاق » وما قيل منهم فى معشوقاتهن .

والخامس عن « الحب والجمال » وفيه فصول حبّ امتداح النساء ووصف جمالهن على اختلاف فى ألوان الوصف والتشبيه وأسماء النساء .

والسادس عن « الغزل ووصف النساء » .

والسابع عن « العيون وما قيل فيها » نثراً ونظماً مع رسالة فى معانى لفظ « العين » وآفة النظر وغائلته .

والثامن عن « تعدد الزوجات والأزواج » وفيه فصول عن حكمة التعدد فى الإسلام إلى كشف وجه المرأة فى الإحرام .

والتاسع عن « عداوة النساء » وأنّ طاعتهن تردى العقلاء وتذلّ الأعزاء .

أمّا الباب العاشر فحوى « طرائف عن الحبّ » وفيه فصول عن المرأة بين الحب والمال ومن الحبّ إلى الزهد وغيرها من ضروب أخرى إلى محبة الأعداء .

وإنا لعلى يقين من أن هذه الأبواب والفصول كلّها ـ وقد اجتمعت مفصّلة وموضّحة فى هذا الكتاب الجديد ـ جديرة بأن تجعله ـ كما أراد مؤلفه العلامة المحقق المغفور له أحمد تيمور باشا رحمه الله ـ ذا نفع كبير للأدباء والمتأدبين ولقراء العربيـة أجمعين ، والله ولىّ التوفيق .

صفات الحب وأغراضه

الحبّ ما هو ؟

قال أبو بكر الورّاق : سأل المأمون عبد الله بن طاهر ذا الرياستين عن الحب ما هو ؟ فقال : يا أمير المؤمنين : إذا تقادحت جواهر النفوس المتقاطعة بوصل المشاكلة ، انبعثت منهما لمحة نور تستضيء بها بواطن الأعضاء ، فتتحرك لإشراقها طبائع الحياة . فيصوّر من ذلك خُلُقٌ حاصرٌ للنفس متّصل بخواطرها يسمّى الحبّ .

وسئل حمّادُ الرّاوية ـ عن الحبّ ما هو ؟ فقال : الحبّ شجرة أصلها الفكر . وعروقها الذِّكر ، وأغصانها السّهرُ ، وأوراقها الأسقام ، وثمرتها المنيّة .

وقال مُعاذُ بن سَهْلٍ : الحبُّ أصعب ما رُكِبَ ، وأَسْكَرُ ما شُرِبَ . وأقطعُ ما لُقِيَ ، وأحْلَى ما اشْتُهِيَ ، وأوجع ما بَطن ، وأَشْهَى ما عَلَنَ . وهو كما قال الشاعر :

وللحبِّ آفاتٌ إذا هِيَ صرّحَتْ   تَبدَّتْ علاماتٌ لها غُرَرٌ صُفْرُ
فباطِنُهُ سُقْمٌ وظاهرُهُ جَوًى   وأَوَّلُهُ ذِكْرٌ وآخرُهُ فِكْرُ

وقال بشّار العقيلي :

هل تعلمينَ وراءَ الحبِّ منزلةً   تُدْنِي إليكِ فإن الحبَّ أَقْصَانِي

وقال غيره :

أُحِبُّكِ حُبًّا لو تُحبِّينَ مثلَهُ   أَصابَكِ مِنْ وَجْدٍ عَلَيَّ جُنُونُ
لطيفاً من الأحشاء ، أمَّا نهارُهُ   فَدَمْعٌ ، وأمَّا لَيْلُهُ فأَنِينُ

وقال الفقيه الفيلسوف أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم ، فى كتاب طوق الحمامة فى الألفة والألّاف : الحبُّ أوَّله هزلٌ وآخره جِدٌّ . دَقَّتْ معانيه ـ لجلالتها ـ عن أن توصف

فلا تدرك حقيقتها إلّا بالمعاناة . وليس بمنكر فى الديانة ، ولا بمحظور فى الشريعة . إذِ القُلُوب بيد الله عزّ وجلّ .

وقد أحبّ من الخلفاء المهديّين والأئمة الراشدين كثير .

وأفتى ابن عباس بأنّ قتيل الحبّ لا دية له . والحبّ اتصالٌ بين أجزاء النفوس .

وقال الله عزّ وجلّ :

« هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَجَعَلَ مِنهاَ زَوْجهاَ لِيَسْكُنَ إِلَيْهاَ ... » .

وللحبِّ علاماتٌ منها : إدمان النَّظر إلى المحبوب والإقبال بالحديث إليه ، والإنصات إلى حديثه ، وتصديقه وإن كذب ، وموافقته وإن ظَلَمَ ، والشهادة له وإن جار .

ومن أفضل ما يأتيه الإنسان فى حبّه : التعفّف ، وترك ركوب المعصية والفاحشة .

وعن أبى هُرَيْرَةَ ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله فى ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّهُ : إمامٌ عادِلٌ ، وشَابٌّ نَشَأَ فى طاعةِ الله عزّ وجلّ ورَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بالمسجِد إذا خرج منه لا يلبث حتَّى يعود إليه ، ورجلان تحابّا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرّقا ، ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجلٌ تصدق فأخفى حتَّى لا تعلمَ شِمَالُه ما تنفِقُ يمينُه » .

الحبُّ والمحبوبُ[1] :

قولهم : أحببت حبا : الحب ليس بمصدر لأحببت ، إنما هو عبارة عن الشغل بالمحبوب ، ولذلك جاء على وزنه مضموم الأول ومن ثم جمع كما يجمع الشغل ، قال : ثلاثة أحباب : فحبٌّ علاقة ، وحبٌّ تخلَّان ، وحبٌّ هو القتل .

وكلما كان الفعل أعمّ وأشيع ، لم يكن لذكر مصدره معنى . ولولا كشف الشاعر لاختلاف أنواع الحب ما كدنا نعرف مافيه من العموم وأنه ــ فى معنى الشغل كما تقدم .

(١) بدائع الفوائد ص ٨٥ .

وقد أنشدوا فى الصحاح بيتين هما :

أُحِبُّ أبا مروان من أجل تمْرِهِ   وأَعلمُ أنّ الحب بالمرء أرفقُ
ووالله لولا تَمْرُهُ ما حَبَبْتُهُ   وكانَ عياضٌ منهُ أَدْنَى ومُشْرِقُ

ولما جاءوا إلى اسم الفاعل ـ أتوا بالاسم الرّباعى حتى كأنهم لم ينطقوا بالثلاثى فقالوا : محبٌّ ولم يقولوا : حابٌّ أصلًا . وجاءوا إلى المفعول فأتوا به من الفعل الثلاثى ـ فى الأكثر فقالوا : محبوب ، ولم يقولوا : مُحَبٌّ ـ إلا نادرًا كما قال :

ولقد نزلت فلا تظُنى غيرَهُ   منّى بمنزلة المُحَبِّ المكرَمِ

فهذا من : أحببت ـ كما أن المحبوب من : حببتُ ، ثم استعملوا لفظ الحبيب فى : المحبوب، أكثر من استعمالهم إياه فى المحبّ ، مع أنه يطلق عليهما .

فمن مجيئه بمعنى المفعول قول ابن الدُّمَيْنَة :

وإن الكثيبَ الفردَ من جانبِ الحِمَى   إلىَّ وإن لم آتهِ لَحَبيبُ

أى : لمحبوب . ومن مجيئه للفاعل ـ قول المجنون :

أتهجرُ لَيلَى بالفراق حبيبَها   وما كلُّ نفس بالفراق تَطيبُ

فهذا بمعنى : محبها . وربما قالوا للحبيب : حِبٌّ : مثل خدن ، خِدنٌ وخدينٌ مثل : حبّ وحبيب . وإذا ثبت هذا فقوله : الحبُّ ليس بمصدر لأحببت ، إنما هو عبارة عن الشغل بالمحبوب ، وأجروه على الفعل الرباعى استغناءً عن مصدره ، وهذا لكثرة ولوع أنفسهم بالحب وألسنتهم به ، فاستعملوا منه أحبّ المصدرين استغناءً به عن أثقلهما .

فلما كان المحبُّ ملازماً لذكر محبوبه ، ثابت القلب على حبه ، مقيماً عليه لا يروم عنه انتقالًا ولا يبغى عنه زوالًا ، اتخذ له فى سويداء قلبه وطَنا ، وجعله له سكناً ، حيث قال :

تزول الجبال الراسياتُ وقلبهُ   على العهْدِ لا يلوى ولا يتغيَّر

وفى شرح لآمية العجم . . للصّفدى :

فالحِبُّ حَيث العِدا والأسدُ رابضةٌ حول الكِنَاسِ لها غابٌ مَن الأَسَلِ

الحب ـ بالضم : المحبّة ، وبالكسر : الحبيب نفسه . قال ابن الأنبارى :
« الِحب هو الحبيب . يقال للمذكر والمؤنّث بلفظ واحد » . ويحكى عن بعض العرب أنّهم يقولون : فلانة حِبَّتى .

***

عشق الشرف وعشق الجمال :

قال عروة بن الزبير رحمه الله : « ما عشقت من امرأة قطّ إلّا حسن شرفها ، فإنّى لأعشق الشرفَ كما أعشقُ الجمال » .

وإنّما أراد الحسب ، وصراحة النسب ، كما قال عبد الرحمن بن الحارث بن هشام :
« ما عشقت من امرأة قط إلّا حسبها » .

وقال كُثَيِّرُ الشّاعر :

وأنت التى حبَّبَتِ كلّ قصيرة إلىّ وما تدرى بذاك القصائر

ولم يرد : القصيرة القدّ ، وإنّما أراد المقصورة فى الجمال، من قولك: قصره ، إذا حبسه..
والمقصورة هى : المحجوبة . ومنه قول الله تعالى : « حورٌ مقصوراتٌ فى الخيام » أى : محبوسات . وقوله تعالى : « فيهنّ قاصراتُ الطّرفِ » أى : قصرن نظرهنّ على أزواجهنّ فلايبغين بهم بدلًا .

ويدلّ على مراد كثيّر فى بيته ، قوله فى البيت الذى بعده :

عنيتُ قصيراتِ الحجالِ ولم أردْ قصارَ الخُطَى، شرّ النساءِ البحاترُ

والبحاترُ : القصار .

أحلام المحبين :

كان أبو القاسم عليّ الشريف المرتضى شاعراً عفّ اللسان، يهوى الحُسْنَ أينَما وجدَه، وينحو فيه منحى طاهراً بريئاً. واشتهر بحبّ الجمال العُذْرِيّ ... وقد عشِقَ الأدبَ الرفيعَ، كما عُمِّرَ فوْقَ الثَّمانينَ عاماً ، حيث ولد سنة ٣٥٥ وتوفى سنة ٤٣٦ هـ ـ ومن شعره :

ضَنَّ عَنِّى بالنَّزْر إذ أنا يقظا ... نُ وأَعْطى كثيرَهُ فى المَنامِ
والتَقَيْنا كما اشتهْينا ولا عَيْـ ... ـبَ سِوَى أنَّ ذاكَ فى الأحْلامِ
وإذا كانَتِ الملاقاةُ ليلًا ... فالليالى خير من الأيامِ

وقالَ الشريف الرضى (أخوه) وكان شاعراً مثله يتّفق معه فى هواه وحبِّه وعِشقه للحُسْنِ والجمال :

بِتْنَا ضجيعَيْن فى ثوبَىْ هوًى وتُقًى ... يَلُفُّنَا الشَّوْقُ من فرْقٍ إلى قَدَمِ
وباتَ بارقُ ذاكَ الثغرِ يُوضِحُ لِى ... مواقِعَ اللَّثْمِ فى داجٍ من الظُّلَمِ

***

الحبيبِ الأول والحبيب الآخر :

قال حبيب الطائى :

نقِّلْ فؤادكَ حيث شئت من الهوَى ... ما الحبُّ إلّا للحبيب الأوّل
كم منزلٍ فى الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبدًا لأوّل منزل

وقد ردّ عليه شعراء آخرون . فمن ذلك قول بعضهم :

افخَر بآخر من كلفت بحبِّهِ ... لا خيرَ فى حبّ الحبيب الأوّلِ
أنشُكُّ فى أنّ النبِيَّ مُحمداً ... سادَ البرية وهْوَ آخِرُ مُرْسَلِ ؟ !

ومنه قول ديكِ الجنّ الحمْصىّ :

كذب الذين تحدّثوا أنّ الهوَى　　لا شكَّ فيه للحبيب الأوّلِ
ما لم أَحِنَّ إلى خراب مقْفرٍ　　دَرَسَتْ مَعَالِمُه كأنْ لَم يُؤْهَلِ

فقال حبيب « حين بلغه قول ديك الجنّ » :

كذب الذين تخرَّصُوا فى قولهم　　ما الحب إلّا للحبيب الأوّلِ
أَوَ طيِّبٌ فى الطَّعْمِ ما قد ذُقْتَهُ　　من مأكلٍ أَوْ طعم مالمْ يؤكَلِ

قال العلوىّ الأصبهانى[١] :

دعْ حبَّ أوّل من كلفت بحبِّهِ　　ما الحبُّ إلّا للحبيب الآخرِ
ما قد تولّى لا ارتجاعَ لطيبِهِ　　هل غائب اللذات مثلُ الحاضرِ ؟
إن المشيب وقد وفى بعقامه　　أوفى لَدَىَّ من الشَّباب الغادِرِ
دُنْيَاكَ : يومُكَ دون أمْسِكَ فاعتبر　　ما السَّالفُ المفقودُ مثلُ الغابِرِ

الحبُّ مع اختلاف الدين :

قال أبو الطحّان الأسدىّ ، وكان نديماً لفاسٍ من النّصارى :

كأن لم يكن فى القصر، قصرمقاتلٍ　　وزورة ظلّ ناعم وصديقُ
معى كلُّ فضفاضِ الثياب كأنّهُ　　إذا ما جرى فيه المدامُ فتيقُ
وإنى وإن كانوا نَصَارَى أُحِبُّهمْ　　ويرتاحُ قلبى نحوهُمْ وَيتُوقُ

* * *

(١) فى الصناعتين ص ٣٣٤ .

وللشيخ رجب الحريرىّ قصيدة يصف فيها حبّه لفتى نصرانىّ يقول فيها :

أرقُّ من رَوْحِ الصَّبا وأَطْيَبُ كالماءِ جِسْماً باللِّحاظِ يُشْرَبُ
ولفظه السِّحْرُ الحلالُ يطربُ سَكرتُ مِنه وهْوَ شُهْدٌ يَعْذُبُ
فاعجب لشُهْدٍ مُسْكِرٍ من سِحْرِ

قابلتُه بأحسنِ الكلامِ مُرَحِّباً مُعَظِّماً مقامِي
ووجهُهُ الوضَّاحُ فى ابتسام وخَصَّنِي باللُّطفِ والإكْرامِ
وبالجميل والحيا والبِشْرِ

***

الحبُّ فى كلّ حال :

قال عنترة العبسىُّ به يصف حبَّهُ لعبلةَ ابنة عَمّه ، على ظُلْمِها إياه :

أُحبُّكِ ياظَلُومُ وأنت منِّى مكان الرُّوحِ من جَسَدِ الجبانِ
ولو أَنّى أقول : مكان رَوحِي لخِفْتُ عليكِ بادرةَ الطّعانِ

وقال بعضهم ، فى الوداع :

ودَّعْتُهمْ من حيثُ لم يعلمُوا ورحتُ والقلبُ بهمْ مُغْرَمُ
سألتُهم تسليمة منهُمُ عَلَيَّ إذ راحُوا . فما سَلَّمُوا
واستحْسَنُوا ظُلْمِى فمِنْ أجلِهِمْ أَحبَّ قلبى كُلَّ من يَظْلِمُ

وقال دعْبلُ الخزاعى :

وقف الهوى بى حيثُ أنت فليسَ لى متأخّرٌ عنه ولا مُتَقدّمُ
أَجدُ المَلامَةَ فى هواك لذيذةً حبًّا لذكركِ فلْيَلُمْنى اللُّوَّمُ
وأهنتِنِى ، فأهنتُ نفسِى صاغِراً ما مَنْ يهونُ عَلَيْكِ مِمّنْ يُكْرَمُ

حبُّ النساء المال :

قال الزُّبيْر بن بـكّار فى أنساب قريش(١) : كان « نُبَيْهٌ وأخوه منبّه » من وجوه قريش ، وذوى النَّباهة فيهم ، ولـكنهما قُتِلا « ببدرٍ » كافريْن ، وكانا من المطعِمِينَ يَوْمَ بَدْرٍ .

لقد كان « نُبَيْه » بضمّ النون وفتح الموحّدة بعدها « ياء » ساكنة « فهاء » وكنيته «أبو الزَّرَام» بتشديد الزّاى المعجمة ، ابن الحجاج بن عامر بن حُذَيفَةَ بن سعيد بن سهم بن عمر ابن هُصَيْص «بالتصغير» بن كعب بن لؤى بن غالب. وكان نُبَيْه شاعراً مطبوعاً على الإجادة ، وقد قيل : إن زيد بن عمرو بن نفيل كان يقول :

تلك عرسایَ تنطقانِ لهجرٍ ... وتقولانِ قَوْلَ أَثْرٍ وَعَتْرِ

فقال نُبَيْهٌ من القافية نفسها ، فى زوجتيه وقد سألتاه الطلاق :

تلك عرسایَ تنطقان على عَمْـ ... ـدٍ أَنِ اليومَ قول زُورٍ وهَتْرِ
سألتانى الطلاق أن رأتا ما ... لى قليلًا . . قد جئتمانى بِنُكْرِ
فلعلِّى أن يـكثُرَ المالُ عندِى ... ويعرَّى من المغارمِ ظهرِى
وتُرَى أعبدٌ لنـــا وأواقٍ ... ومناصيفُ من خوادمَ عَشْرِ
ونَجُرُّ الأذيالَ فى نِعمةٍ ثُمَّ ... تقولان : ضع عصاكَ لَدْهرِ
وىْ كأنْ مَنْ يـكُنْ له نَشَبٌ ... يُحْبَبْ ومن يفتقرْ يعشْ عيشَ ضُرِّ
ويجنّبْ سرّ النّجِىِّ ولـكن ... أخَا المال مُحْضَرٌ كُلَّ سِرِّ

ومن شعره :

قصر الشىء بى ولَوْ كنت ذَا مَا ... ل كثير لأَجْلَبَ النَّاسَ حَوْلِى
ولقالُوا : أنتَ الـكريمُ علينا ... ولحطُّوا إلى هوایَ ومَيْلِى
ولـكِلْتُ المعروفَ كيلًا هنيئًا ... يُعْجِز الناسَ أن يكيلُوا كَكَيْلِى

---

(١) فى خزانة الأدب ج٣ .

وله أيضاً :

قالتْ سُلَيْمى يوم جئتُ أزورها لا أبتغى إلّا امرأً ذا مالِ
لا أبتغى إلّا امرأً ذا أنْضُرٍ كيما أسدُّ مفارقى وخِلالِى
فلأحرصنّ علَى اكتساب مُحَبَّبٍ ولأكْسَبَنْ فى عفّةٍ وجمالِ

***

فى خلاصة الأثر ج ٢ :

كان الأديب حُسَيْن بن أحمد بن حُسَيْن المعروف «بابن الجَزَرى» الشاعر المشهور الحلبىُّ أحد المجيدين ، جمع شعره بين الصّناعة والرِّقّة . كان إذا تكلّم لا يظنّه الإنسان يعرف شيئاً ، وكان له خطٌّ نسخىّ غايةً فى الحُسْن إلا أنّه كان شديد الأخلاق أحياناً ، وكان مغرماً بشعر أبى العلاء المعرّى ، كثير الأخذ منه ، وأخيراً رآه فى منامه وقرأ عليه اللّزوميّات . وسمعه يقرِّر فى تلك الرؤيا : أنّ الخير كلَّ الخير فيما أكرهتك النفس الطبيعيّةُ عليه ، والشرّ كلّ الشرِّ فيما أكرهتك النفس عليه .

ومن شعر ابن الجزرىّ :

إن كنت متّخذاً لجرحِكَ مَرْهَماً فكتابُ ربِّ العالمين الْمَرْهَمُ
أو كنتَ مصطحباً حبيباً سالكاً سُبُلَ الهوَى فلزومُ ما لَايلزَمُ

ومن شعره فى الغزل :

ما عشْتُ من ألم الفِراقِ لو لَمْ أُطِلْ أمَلَ التلاقِى
فأظلّ كالملسُوعِ من أفعى النَّوى ، ورَجَاى راقِى
يا ثالث القمرين إلّا فى الكسوفِ وفى المحاقِ
حتّام دمعى فيكَ لا يرقا . . ورُوحى فى التراقِى
وإلامَ يسْتَسْقِى الفؤا دُ ظَماً ، وأجْفانى سواقِى

وغريق دمع العيْن لا تلقاهُ إلّا فى احتراقِ
والحبُّ ما أرْوَى الضلو عَ جوًى ، وما أرْوَى المـآقِي
فَعَساكَ أن تَجْزِى مُحِبَّ كَ فى المحبّـة بالوفَاقِ
ولقــد لقيتُ هواكَ أعـ ظَمَ ما لقيتُ ، وما ألاقِي
وصبرتُ فيكَ عَلَى العِدَا صَبْر الأسير عَلَى الوثَاقِ
وعلمتُ أن الصبر يا عذبَ اللَّمَى مُرٌّ المَذاق
فاعرض عن الإعراض إعْ راضى لديكَ عن النِّفَاقِ
وارفق ولوْ بالإلتفا ت علىَّ ما بيْنَ الرِّفَاقِ
فلقدْ يكون تَلَفُّتُ الأ عناق داعية العنــاق
واستبقِ منِّى باللقــا ء بواقياً ليست بَواقِي
أعضاءَ صبٍّ ، مالَهُ إلّاكَ من عَيْنيْكَ واقِي
فالبعضُ سـودُ عيونها أمْضى من البِيض الرِّقاقِ
وقُدُودُهــنَّ رواشقٌ فى الطعن كالسُّمْر الرِّشَاقِ
وإذا بُليت بحبهنَّ بُليت بالدَّمْع المُرَاقِ

ومن جيّد شعره قولُه :

نتفدَّاك ساقياً قد كساكَ الـ حُسْنُ من فرقِكَ المضِىء لساقِكْ
تُشْرِقُ الشمسُ من يدَيْكَ، ومن فيـ كَ الثُّرَيَّا ، والبدْرُ من أطواقِكْ
أَوَلَيْسَ العجيبُ كَوْنُكَ بَدْرًا كاملًا ، والمحاقُ من عُشَّاقِكْ
فِتْنَةٌ أَنتَ إذْ تُميتُ وَتُحْيِي بتَلاقيكَ من تشا ، وفِرَاقِكْ
لسْتَ منْ هَذِه الخليقة بل أنـ تَ مَليكٌ أُرْسِلْتَ مِنْ خلّاقِكْ

* * *

الحبّ خُضوع النَّفس :

وكان حاتم بن أحمد بن موسى بن أبى القاسم بن محمد بن أبى بكر بن أحمد بن عمر الأهدل اليمنى الحسينى مشهوداً له بتحصيل أنواع العلوم والمعارف ، والنظم والنثر ، وقد رحل إلى كثير من البلدان ، وأقام بالحرمين ، ثمّ توطن المَخَا ، وحصل له بها شأن عظيم ينبطه عليه صفوة أصحابه وأترابه ، إذ كان له يد طُولَى فى العلوم الشرعية والفنون العربية ، إلّا أنّه غلب عليه التصوفُ ، كما كان متقناً لعلم الأسماء والحروف ودوائر الأولياء ، حتى إنّه كان زاهداً فى الدنيا ، ومن شعره قوله مشطراً فائية ابن الفارض :

قلبى يُحدِّثُنى بأنَّكَ مُتْلفِى عَجِّل بهِ ولكَ البقَا ، وتَصَرَّفِ
قد قلتُ حينَ جهلتَنى وعرفتَنى رُوحى فِدَاكَ عرفتَ أمْ لمْ تعرِفِ
أنتَ القتيلُ بأىٍّ من أحببْتَهُ فَلكَ السعادةُ فى الشَّهادةِ يَاوَفِى
ولقد وصفتُ لكَ الغرامَ وأهلهُ فاخترْ لنفسِكَ فى الهوىَ من تَصْطَفِى

وقال مخمِّساً قصيدة ابن النّبيه :

رقم العذُولُ زخارفاً وتصنّعَا وأشاعَ نقْضَ العهدِ عنكَ وشَفَّعَا
فأجبتُه والنفسُ تقطُرُ أدمُعَا أفديه إن حَفظَ الهوَى أو ضيَّعا
مَلكَ الفؤادَ فما عسَى أنْ أصْنَعَا

حكم الغرامُ فَلُذْ بهِ وبحكمِهِ واثبُتْ على مفروضِ وَاجب رسمِه
واخضَعْ لِعَدْلِ الحُبِّ فيه وظلْمِه مَن لمْ يذُقْ ظُلْم الحبيب كَظلمِهِ
حُلْواً فقد جَهِلَ المحبَّةَ وادَّعَى

يامَن بلُطفِ جمالهِ قَلْبى اقْتنَصْ صَبْرى علىالأعتاب من جلدى نكَص
وثباتُ حُجْلِى حينَ زَمْزَمْتُمْ رقص

ياصاحبَ الوجهِ الجميل تدارك الصَّبْرَ الجميلَ فقدْ عفَا وتَضَعضَعَا
وفَّرت من نبلِ اللّواحظِ أسهُمى وكَلَمْتَ أحشائى ولم أتكلّم

وهجرتنى ظُلْماً ولم أتظلَّم هَلْ فى فؤادك رحمةٌ لمُتَيَّم
ضَمّت جوانحهُ فؤاداً مُوجعَا

إنِّى اعترفتُ بزلَّتى وجنَايَتِي . ورضاك مقصودى وغايةُ غايتِى
يامَنْ ضَلَالِى فيه عَيْنُ هِدايتى هَلْ من سبيل أن أبُثَّ صبابتى
أو أشتكى بلْواىَ أو أتضَرَّعَا ؟

لى فى حماك مسارح ومطامح كم بثُّ للغُزْلَانِ فيه أطارحُ
يا قلبُ إن اليوْمَ طيبكَ نَازحُ ياعَيْن عُذْرك أنَّ حُبى وَاضِحُ
كُلّى لفُرقتِهِ أرادَ وأزْمعَا

أشقى الناس أهواها :

زين الدين أحمد بن على بن الحسين بن على الشافعى الحلبى ، ولد بحلب ونشأ بها وكان له مذاكرة تأخذُ بلُبّ الصاحب ومحاضرات وتُرغِّبُ من محاضرات الراغب ، وله شعر قصير منه قوله :

كتبت وأفكارى بحبك مُزِّقتْ كما قد بدَت فى الحب كل ممزق
ولوْ حُمَّ لى التوفيق كنتُ تركته ولكننى أصبحتُ غير مُوفق
إذا قيل أشْقى النَّاس مَنْ بات ذا هوى فلا تنكرن هذا المقال وصدق

وقال متغزلا :

سَألْتها عن فؤادى أين مَسكَنهُ فإنه ضلَّ عنى عِند مَسراها
قالت : لدىّ قلُوب جمةٌ جمعت فأيها أنت تبغى ؟ قلتُ : أشقاها

* * *

رابعة العدوية :

روى ابن خلكان قصة « رابعة العدوية » شهيدة الحبّ الإلهى ، قال :

كانت أم الخير رابعةُ بنت إسماعيل العدوّيةُ البصريّةُ ، مولاةُ آل عَتِيك ، من أعيان عصرها ، وأخبارُها فى الصلاح والعبادة مشهورة .

وذكر أبو القاسم القشيرى فى «الرسالة» أنّها كانت تقول فى مناجاتها : إلهى .. أتحرقُ بالنّار قلباً يحبُّك ؟ ... فهتف بها مرّة هاتفٌ : ما كنّا نفعل هذا فلا تظنّى بنا ظنّ السوء !

وكان سُفْيَان الثَوْرِىُّ عندها يوما ، فقال : واحزناه ! فقالت له : « لا تكذب ، بل قل : واقلّة حُزْنَاه ! . لو كنت محزوناً لم يتهيّأ لك أن تتنفّس .

وقال بعضهم : كنت أدعو لرابعة العدويّة ، فرأيتُهَا فى المنام تقول : هداياك تأتينا على أطباقٍ من نور مخمّرة بمناديل من نور .

وكانت تقول : ما ظهر من أعمالى فلا أَعدُّه شيئا .

ومن وصاياها : اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتِكم .

وأورد لها الشيخ شهاب الدين السهرورْدىّ ـ فى كتاب « عوارف المعارف » قولها :

إِنِّى جعلتُكَ فى الفؤادِ محدِّثِى ... وأَبَحْتُ جِسْمِى من أرادَ جلُوسِى

فالجسمُ مِنّى للجليس مُؤَانسٌ ... وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

***

الحبّ أحسن المعاصى :

فى « لوعة الشاكى ودمعة الباكى » لابن الصفدى :

انتصف الليلُ ، وأقبلتْ عساكرُ السعد بالرَّجْل والخَيْل ، فأمرت صاحبى برفع المدام ، وتجهيز المرقد للمنام ، فرفع الأوانى فى الحال ، وأقبل على ذلك الشان وطال ، وعلق فى المرقد نفحات المسك الأذفر ، وأطلق فيه مباخر النّد والعنبر . ثم قال : أين ترسم لى أن أبيت ؟

فقلت : نم عندنا لـكن خارج البيت ، فأنت ممّن تحققنا منه المروءة والشفقة ، فاخرجعناوردّ الباب بالحلقة. ففعل ما أمرناه وخرج ، ولم يبق فى الصدر هم ولاحرج فقلت لمحبوبى : أما تقوم بنا لننام ، وأتنعم بتقبيل الثغر واعتناق القوام ، فقال لى : أقوم ولـكن العناق حرام ، فقلت : فى عنق تـكون الأوزار والآثام :

فقام ينهضُ والصَّهباءَ تُقْعِدُهُ سُكْراً وحاول أنيَسْعَى فلمْ يُطِقِ
وقال لى بفتورٍ من لواحظهِ إن العناقَ حرامٌ قلتُ : فى عُنُقى

فقال : استغفر الله من الفجور واللغَط ، ومن وقوعك أيها الإنسان فى الغلط .

فقلت : لا تظن أن محبتك من المعاصى والسيئات ، واعلم أن هواك من أفضل الفضائل وأحسن القربات .

أستغفرُ اللهَ إلّا مِنْ مَحَبَّتِـكُم فإنها حسناتى يوم ألقاهُ
فإن زعمتم بأنّ الحبَّ مَعْصِيَةٌ فالحبُّ أحْسَنُ مايُعْصَى به اللهُ

* * *

الهوى قدرٌ :

أخبرنا أبوالحسن على بنسليمان الأخفش . قال : أخبرنا أبو العباس محمد بن يزيد المُبَرِّدُ قال : سألتأباالفضل الرياشى عن معنى قول الشاعر :

الريح تبكى شجْوَها والبرْقُ يلْمعُ فى الغَمامَة

فقال : هو عندى كقولهم : ويل للشجىِّ من الخلىِّ . ومعناه : إن البرْقَ يضحك والريح تبكى .

وذهب بعضهم إلى أن المعنى أن الريح تبكى شجوها ، والبرق يبكى أيضاً وهو يلمع فى الغمامة .

وأنشدنا أبو بكر الأصبهانى لنفسه :

إلَّا تكُن فى الهوَى أرويتَ منْ ظمَأ ... ولا فككْتَ من الأغلالِ مأسُورَا
لقد دَلَلْتَ على أن الهوَى بدَلٌ ... من أجْلِ ما كانَ مرْجُوًّا ومحذورَا
فحَسْبُ نَفْسِي غِنىً عِلْمِي بموضِعِها ... مِنَ الهوَى وبأنِّى كنتُ معذُورَا
وأنتَ خالٍ وقلبى ذا الذى ملكَتْ ... هواهُ نفسُك إكراهاً وتخييرَا
إنِّى وغلَّةُ نَفسِى فيكَ قائمةٌ ... لم تَلْقَ مُذْ ألِفتْكَ النَّفْسُ تغييرَا
ولم يكنْ باختيارٍ لى فأتركَهُ ... ولا اضطرارٍ أتاهُ القلبُ مقهورَا
لكنّه من أمور الله مُمْتَنِعٌ ... فى الوصف قدّرَهُ الرّحْمن تقديرَا
لن يضبطَ العقلَ إلَّا من يدبِّرُهُ ... ولن ترَى للهَوى فى العقْلِ تدبيرَا
كُن مُحْسِناً أو مسيئا وابقَ لى أبداً ... تكن لدىَّ على الحالين مشكورَا

وأنشدنا لنفسه فى مثل هذا :

فإنْ تكنِ القلوبُ إذا تُجازَى ... وتَسْلُكُ فى الهوَى سَنَناً سويَّا
فمالى أهْوَنُ الثَّقَلَيْنِ جُرْماً ... عليْكَ ، وأنت أكرمُهم عَليَّا ؟
عمدتُ سنينَ أَستَخْفِى التَّصَابِى ... ولا أَرْضَى من الوَصْلِ الرَّضِيَّا
فلم تُقْلِعْ صُروف الدَّهرِ حتَّى ... خَسِسْتُ عن أنْ أحَيِّىَ أو أُحَيَّا
تبغَّضْ ما استطعَت وعشْ سليماً ... فأنتَ أحبُّ مخلوقٍ إليَّا

وأنشدنا أبو إسحاق الزّجاج قال : أنشدنا أبو العباس محمد بن يزيد :

يا أيُّها الراكبُ الغادى لِطيَّتِهِ ... عَرِّجْ أُنبئْكَ عنْ بَعضِ الذى أجِدُ
ما عالجَ النَّاسُ منْ وَجْدٍ ألمَّ بهمْ ... إلّا وَجدْتُ به فَوْقَ الّذى وَجدُوا
حَسْبى رِضَاهُ ، وأنى فى محبَّته ... وَوُدّه آخِرَ الأيام أجْتَهِدُ

وأنشد سليمان بن عبد الله بن طاهر لأبيه :

ألَا إنّما الإنسانُ غمدٌ لقلْبِهِ ... ولا خَيْرَ فى غمْدٍ إذا لمْ يكُنْ نَصْلُ
فإن كان للإنسان قلبٌ فقلْبُهُ ... هو النَّصلُ ، والإنسانُ من بعدِهِ فَضْلُ

أنواع الحب

ضروب المحبة[1] :

المحبّة ضروبٌ : أفضلها محبّة المتحابِّينَ في الله ، ثمّ محبّة القرابة ، ومحبّة الألفة والاشتراك في المطالب . ومحبّةُ التصاحُب والمعرفة . ومحبّة البرِّ يصنعه المرء عند أخيه ، ومحبّة الطمع في جاه المحبوب ، ومحبّة المتحابين لسرٍّ يجتمعان عليه ويلزمهما ستره . ومحبّةُ بلوغ اللذّةِ وقضاء الوطرِ ، ومحبّةُ العشق الناشئة عن اتصال النفوس .

حبّ الولد[2] :

أرسل معاوية إلى الأحنف بن قيس فقال : يا أبا بحر ، ما تقول في الولد ؟

قال : ثمارُ قلوبنا ، وعمادُ ظهورنا ، ونحنُ لهم أرضٌ ذليلةٌ ، وسماءٌ ظليلةٌ . فإن طلبوا فأعطهم ، وإن غضبوا فأرضهم ، يمنحوكَ ودّهم ، ويحبوكَ جهدهم ، ولا تكن عليهم ثقيلًا ، فيملوا حياتك ، ويحبّوا وفاتك .

فقال معاوية : لله أنت يا أحنف ، لقد دخلت عليّ وإنّي لمملوءٌ غضباً على يزيد ، فسللتَهُ من قلبي .

فلمّا خرج الأحنف من عنده ، بعث معاوية إلى يزيد بمائتي ألف درهم ومائتي ثوب . فبعث يزيد إلى الأحنف بمائة ألف درهم ومائة ثوب .

وكان عبدالله بن عُمَرَ يذهب بولده سالمٍ كلَّ مذهب ، حتى لامَهُ النّاسُ فيه فقال:

يلومونني في سالم ، وألومُهُمْ وجِلْدةُ بَيْنَ العَيْنِ والأَنْفِ سَالِمُ

وقال : إن ابني سالمًا ، ليحبُّ اللهَ حُبًّا لَوْ لَمْ يَخَفْهُ مَا عَصَاهُ .

---

(١) في كتاب طوق الحمامة في الألفة والألاف لابن حزم (٢) في العقد الفريد ج ١ ص ٢٧٧ .

وكان يحيى بنُ اليمان يذهبُ بولده داودَ كلّ مذهبٍ حتى قال يوماً : أئمة الحديث أربعةٌ ، كان عَبدُ الله ، ثمّ كان عَلْقَمَةُ ، ثم كان إبراهيمُ ، ثمّ أنتُ ياداودُ .

وقال : تزوجتُ أمَّ داود ، فما كان عندنا شيء أَلُفُّهُ فيه حتّى اشتريتُ له شِكْوَةً بِدَانِق .

وقال زيد بن عليّ لابنهِ : يابُنَيَّ ، إنّ الله لم يَرضَكَ لى فأوصاكَ بى ، ورضِيَنى لكَ فحذّرَنيكَ ، واعلَم أنَّ خَيْرَ الآباء للأبناء مَنْ لمْ يدعُهُ التَّدْليلُ إلى التفريط ، وخيرَ الأبناءِ للآباءِ من لم يدْعُه التَّقْصِيرُ إلى العُقُوق .

وفى الحديث المرفوع : « ريحُ الولَدِ من ريح الجنّة » . وفيه أيضاً : الأوْلادُ من ريحان الله .

وقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، لما بُشِّر بفاطمة : « رَيْحَانةٌ أشمُّها ورزقها على الله » .

ودخل عمرو بن العاص ، على مُعاويةَ وبين يديه بنتُه عائشةُ . فقال : من هذه ؟ قال : هذه تفَّاحَة القلب . فقال له : انبذْها عنكَ ، فوالله إنهنَّ لَيلدْنَ الأعداءَ ، ويُقرِّبن البُعَداءَ ، ويورثْنَ الضَّغَائنَ .

فقال له معاوية : لا تقل ذاكَ يا عمرو : فوَالله ما مرّض المرضَى ، ولا ندبَ الموْتى ، ولا أعان على الأحزان مثلُهنَّ . وربَّ ابن أخت قد نفع خالَهُ .

وقال المعلَّى الطائى :

لَوْلَا بُنَيَّات كَزُغْبِ القَطا ... يرْدُدْنَ مِنْ بَعْضٍ إلى بَعْضِ
لَـكانَ لى مُضطرَبٌ واسعٌ ... فى الأرضِ ذاتِ الطُّولِ والعَرْضِ
وَإنَّمَا أولَادُنَا بَيْنَنَا ... أكبَادُنَا تمشِى عَلَى الأَرْضِ

وكانت فاطمة بنت رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم ، ترَقِّصَ الحُسَيْنَ بن علىّ رضى الله عنهما وتقول :

إنّ بُنَىَّ شبْهُ النّبِىّ ... لَيْسَ شبيهاً بِعَلِىّ

وكان الزُّبَيْرُ بين العوّام يُرَقِّصُ عُرْوَةَ ابنه ويقول :

أبيضُ مِنْ آلِ أبي عَتِيقِ مُبارَكٌ مِنْ وَلَدِ الصّديقِ
ألتذُّهُ كما ألذُّ رِيقى

وقال أعرابىٌّ يرقّصَ وَلَدَهُ :

أعرِفُ مِنه قِلَّةَ النُّعَاسِ وخِفَّةً مِنْ رأسِهِ فى راسِى

وقال عبد الملك : أضرَّبنا فى الولَدِ حُبُّنَا له ، فلم نؤدِّبْهُ ، وكأنَّ الوليدَ أدَّبنَا(١) .

* * *

حبّ الأيامى واليتامى:

من بديع أخبار الحَكَم أن العباسَ الشاعرَ توجَّهَ إلى الثّغر ، فلمانزل بوادى الحجارة ، سمع امرأة تقولُ : واغوثاه بكَ يا حَكَم ، لقد أهملْتَنَا حتى كَلِبَ العدوُّ علينا فأيَّمنا وأيتمَنا . فسألها عن شأنها . فقالت : كنتُ مُقبلةً من البادية فى رِفقةٍ ، فخرجت علينا خَيْلُ عَدُوٍّ فقتلت وأسرتْ ، فصنعَ قصيدتَه الّتى أوّلُها :

تَمَلْمَلْتُ فى وادى الحِجَارَةِ مُسْنِدًا أَراعِى نجوماً ما يرِنَ تَغَيّرَا
إلَيْكَ أبا العَاصى نضيتُ مطيّتى نسير بهم ساريا ومُهَجِّرَا
تدارَكْ نساء العالمِينَ بنُصْرَةٍ فإنّك أحرَى أن تُغيثَ وتَنْصُرَا

فلمّا دخل عليه أنشده القصيدة ، ووصف له خوفَ الثّغرِ واستصراخ المرأة باسمه ، فَأَنِفَ ونادَى فى الحين بالجهادِ والاستمداد ، فخرج بعد ثلاثٍ إلى وادِى الحجارةِ ، ومعه الشاعر . وسأل عن الخَيْل التى أغارت من أىِّ أرضِ العدوِّ كانتْ ؟ فأُعْلِمَ بذلك ، فغزا تلكَ النّاحيةَ ، وأَثْخَنَ فيها ، وفتح الحصون والدّيارَ ، وقتل من العدوِّ عدداً كثيراً . وجاء إلى الوادِى فأمر بإحضار المرأة ، وجميع مَنْ أُسِرَ له أحَدٌ فى تلك البلاد ثمّ أمر بضرب

---

(١) يريد بالوليد ابنه « الوليد بن عبد الملك » . (٢) فى نفح الطيب ج ١ ص ١٦٢ .

رقاب الأسرى بحضرتهم ، وقال للعباس : سلها هل أغاثها الحكَمُ ؟ فقالت المرأة وكانت نبيلة : والله لقد شَفى الصُّدورَ ، وأنكَى العدُوَّ ، وأغاثَ الملهوفَ ، فأغاثَهُ الله وأعزَّ نصْرَه .

فارتاح لقولها ، وبدا السرور فى وجهه وقال :

ألمْ تَرَ يا عبّاسُ أنِّى أجبْتُها   على البُعْدِ أقتادَ الخميسَ المُظفَّرَا
فأدركْتُ أوطاراً . وأبردتُ غُلّةً   ونفَّسْتُ مَكْرُوباً وأغْنَيْتُ مُعْسِرَا

فقّبل عبّاس يده وقال : نعمْ ، جزاكَ اللهُ خيْرًا عن المسلمين .

* * *

أمثال فى الحبّ(١)

قول لسان الدين الخطيب :

أصناف المحبِّينَ والعشَّاقِ كثير ، بحيثُ يشقُّ إحصاؤهم ، ولا يتأتى استقصاؤهم. كما أورد أبياتاً من قصيدة أبى فراس الحمدانى ، التى يقول فيها :

تسَائِلُنى : مَنْ أنْتَ ؟ وَهْى عَليمةٌ   وهلْ بفتًى مِثْلى عَلَى حَالِهِ نُـكْرُ
فقلت كما شاءتْ وشاءَ لها الهوَى   قتيلُك ، قالتْ : أيُّهم فهُم كُثْرُ ؟

وفى هذا تنبه النفوسُ الصَّعبة ، على حكم المحبّة ، « ليهلِكَ مَنْ هَلَكَ عن بيِّنَة ويحْيا من حَىَّ عَنْ بيِّنَةٍ » .

ثم قال المؤلّف : « وهذه حِكَمٌ تجرى مجْرى الأمثال : المحبّةُ بحرٌ بعيد الشَّطّ ، والفَناء مُنْتَهى الخطّ . المحبّةُ مَهْوًى مِنْ بعيد ، ومجالُ وعْدٍ ووعيد .

المحبّةُ ظَهرٌ لا يركبُه مَنْ يرى الموت فيتنكبهُ . كم قصمت المحبّةُ من ظَهْر ، وكم سيَّر صَوتٌ إلى قَهْرٍ .

---

(١) فى نفح الطيب ج ٢٩ أورد المؤلف قول لسان الدين الخطيب .

حجة بالغة :

قال ابن السُّبْكيّ رحمه الله تعالى :

قالتْ : ألَا لَا تلِجَنْ دَارنَا ... إنَّ أبانَا رَجُلٌ غَايرُ
قُلْت : فإنّى حاضرٌ . . زائرًا ... وَلَا يُلامُ الزَّائر الحَاضِرُ
قالتْ : فإنّ اللَّيْثَ عادٍ بنا ... قلتُ : فَسَيْفى مرهفٌ باتر
قالت : فإنَ القَصْرَ من دُوننا ... قلتُ : فإنِّى فوْقَهُ طائرُ
قالتْ : فإنّ البَحْر مِنْ بَيْننَا ... قلتْ : فإنى سابحٌ ماهرُ
قالتْ : فإنّ الله من فوْقنا ... قلت : نعمْ ، وهْوَ لنا غافرُ
قالت : فَحَوْلى إخوَةٌ سبْعةٌ ... قلت : فإنِّى لَهُم حَاذرُ
قالت : لقَدْ أَعْيَيْتَنَا حُجَّةً ... فَأْتِ إذا ما هجع السامِرُ
واسْقُط علَيْنَا كسقوطِ النَّدَى ... ليلة لا نَاهٍ ولا آمِرُ

* * *

حب الأزواج

زواج النبي من خديجة[1] :

قال صاحب كتاب « سنا المهتدى »

أهـــل السيرة مختلفون فيمن تولى تزويج السيدة خديجة رضى الله عنها لرسول الله صلى الله عليه وســـلم . فذكر ابن إسحاق أنه صلّى الله عليه وسلّم مشى هو وعمه حمزة بن عبدالمطلب إلى والدها خويلد بن أسد فى ذلك . وذكر غير ابن إسحاق أنّ خويلد كان إذ ذاك قد هلك ، وأن الذى أنـكح خديجة هو عمها عمرو بن أسد . قال المبرّد : وهو الذى خطب خطبة النكاح، وكان ممّا قال فى تلك الخطبة : « أمّا بعد ، فإنّ محمداً ممن لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح به شرفاً ونبلًا وفضلًا وعقلًا ، وإن كان فى المـال قِل ، فإنّ المال ظلّ زائل ، وعارية مسترجعة ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك » . فقال عمرو : هو الفحل لايقرع أنفه ، فأنـكحها منه . ويقال : قاله ورقة بن نوفل. والذى قاله المبرّد هو الصحيح لمارواه الطبرى عن جبير بن مطعم ، عن ابن عباس ، وعن عائشة . قال : إنّ عمرو بن أسد هو الذى أنـكح ابنة أخيه خديجة رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وأن خويلداً هلك قبل ذلك .

وذكر الزهرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال لشريكه الذى كان يتجر معه فى مال خديجة : هلم ــ فلنتحدث عند خديجة ، وكانت تـكرمهما ، فلما قاما من عندها ، جاءته جويرية لها وقالت له: جئت خاطباً يامحمد ؟ قال : كلّا . فقالت : ولم ؟ فوالله مافى قريش امرأة وإن كانت خديجة ــ إلّا تراك كفوءًا لها . فرجع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ خاطباً لخديجة مُسْتَحْيِياً منها .

حب خديجة للنبي وتقديره لها :

لقد مّن الله على عباده المؤمنين بقوله سبحانه : « يحبُّهم ويحبُّونه ، والذين آمنوا أشدّ حبًّا لله ، لو أنفقت مافى الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكنّ الله ألّف بينهم » .

وقد شاءت إرادة الله أن ينشأ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نشأة كريمة طاهرة ، حتى عرف من حداثة سنه بالصّدق والأمانة ، والبعد عن صغائر الأمور ، فاشتهر بالصّادق الأمين . وقد سمعت خديجة وهى سيدة من نساء العرب به ، ورغبت فى أن يتجر بمالها فكان نعم التاجر الصدوق المؤتمن ، وربحت التجارة كثيرا ، لما اتصف به عليه الصلاة والسلام من خلق عظيم ، وقلب رؤوف رحيم .

وكان يصحبه خادمها « ميسرة » . . . الذى شاهد ماشاهد من طيب الخلال ، والصّدق فى الأقوال ، والإخلاص فى الأعمال . وقصّ الخادم على سَيدته ذلك . ومن ثمّ آنست فى سيدنا محمد صفات كمال الرجال ، فعرضت عليه أن يتزّوج بها ، فوافق شاكراً راضياً . ولقد كان يخطبها أكبر سادة العرب وجلّةُ ساستهم فلم ترض بواحدٍ منهم .

وكانت على جانب عالٍ من السماحة وجمال الخَلْقِ والخُلُقِ معاً ، وكان هو صلوات الله عليه وسلامه ، يبلغ الخامسة والعشرين ، وتكبره بخمسة عشر ربيعاً . وصادف هذا الزواج المبارك ، بل حالفه التوفيق واليمن ، فكانت نعم الزّوجة الحبيبة الوفية الأمينة المخلصة .

وبينما كان يتحنث فى غار ثور ، نأياً عما كان عليه شباب العرب ، حان ظهور جبريل عليه السلام لأوّل مرّة ، وقال له : اقرأ . فأجابه النبي : ما أنا بقارئ . فضمّه إليه ثم أرسله، وأعاد عليه أخرى . وفى الثالثة : نزلت السورة :

« اقرأ باسم ربّك الذى خَلَق . خَلَق الإنسانَ من عَلَقٍ . اقرأ وربُّك الأكرم . الذى علَّمَ بالقلم . علَّم الإنسان ما لم يَعْلَمْ » .

وما لبث أن عاد النبيّ إلى زوجته يقول : « زمِّلونى » وسرد عليها روايته ، فهدأت روعه بعد أن اختبرت حالته ، إذ خشيت عليه سوءًا فقالت : والله لن يخزيك الله أبداً .

إنّك تصل الرحم ، وترحم الأرامل والأيتام ، وتؤوى الضعفاء والمساكين . ثمّ رأت أخيراً أن تعرض أمره على ابن عمها ورقة بن نوفل ، الكاهن . . . فبشره بأن هذا هو الناموس الذى ينزل على أنبياء الله ورسله ، وسيكون له شأن عظيم !

ولقد عاشرت خديجةُ رسول الله قبل الرّسالةِ خمسة عشر عاماً ، حتّى بلغ الأربعين ، معاشرة كلهاَ الحب والوفاء . وعاش معها حياة العزة والكرامة والاطمئنان . وكم كانت ترفع من مكانته وهوالرفيع المكانة . فتقول : « كلّ شيء ملك محمد ، ليس لى فيه شيء ، فهو صاحبُ الأمر والنَّهْى » . ولبثت معه ثمانية وعشرين عاماً ، فى أتمّ وأكمل مايتصّوره العقل الذكىّ واللبّ الحكيم . إلى أن اختارها اللهُ لجواره ، ولحقت بالرفيق الأعلى .

ولقد كانت أوّل من آمن به من النساء ، وكم حَزِنَ عليها سيدنا محمد صلواتُ الله عليه حزناً شديدا ، حتى ذكر عام وفاتها بعام الحزن . ومازال ، عليه الصلاة والسلام ، يذكرُها بالخير والثناء بعد رحيلها ، ولم يتزّوج عليها قَطّ . فما إن كان بمجلس مع عائشة الصِّدّيقة بنت الصِّديق وتذكر أن فلانة كانت حبيبة خديجة ، حتى قال : أعطوها وأكرموها . ففارت عائشةُ قائلةً : أو لمْ أكن يارسول‌الله ـ أنا البكر ـ خيراً منها . فغضب وتغيَّر وقال والله يا عائشة ، ما عادَلهاَ من النساء أحَدٌ ، لقد أمدّتنى فقيراً ، وأكرمتنى معاشراً ، وملأت علىّ أركانَ حياتِى أُنْسا وسؤددًا . قالت عائشة : وقد أقسمت بحقّه وحبّه ألّا تذكرها إلّا بخير .

خير متاع الدنيا المرأة الصالحة :

قال صلّى الله عليه وسلّم : « تزَوَّجُوا الولُودَ الوَدُودَ من النساء ، فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة » .

وقال أيضاً : « الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة » ونظر خالد بن صفوانَ إلى جماعة فى مسجد البَصْرَة فقال : أبغى امرأة . فقيل له : ما صِفَتُها ؟ قال : أريدها بكراً كثيّب ، أو ثيِّباً كبِكْر ، حلوة من قريب ، فخمة من بعيد ، كانت فى نعمة وأصابتها حاجة ، ففيها أدب النعمة وذل الحاجة ، إذا اجتمعنا كنا أهل دنيا وإذا افترقنا كنا أهل آخرة .

السيدة سكينة بنت الحسين :

كانت سكينةُ بنت الحُسَين[1] سيدة نساء عصرها ، ومن أجمل النساء وأظرفهنّ وأحسنهنّ أخلاقاً . وتزوّجها مصعَبُ بن الزُّبَيْرِ - فمات عنها ، ثم تزوّجها عبد الله بن عثمان بن عبد الله ابن حكيم بن حزام ، فولدت له قريناً ، ثمّ تزوّجها الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان وفارقها قبل الدخول. ثمّ تزوّجها زيدُ بن عمرو بن عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فأمره سليمان بن عبد الملك بطلاقها لعدم قدرته على الوفاء بما عاهدها عليه من ألّا يُدْخِلَ معها غيرهاَ من النِّساء ، فلم يَسَعْهُ إلّا الإذعانُ لأمر سُلَيْمَانَ . ولاعتبار ضعف إرادته باتّصاله بغيرها من الجوارى صارتْ طالقةً . فطلّقَها ..

وقد قيل فى ترتيب أزواجها غير هذا . وقيل أيضاً إنّ الطُّرّة السُّكَيْنِيّة منسوبة إليها. ولها نوادرُ وحكاياتٌ ظريفةٌ مع الشعراء وغيرهم . من ذلك ما يُروَى من أنّها ناظرتْ عُرْوة بن أُذَيْنَة - من أعيان العلماء وكبار الصالحين ، وله أشعار رائقة ، فقالت له : أنت القائل :

إذا وَجدتُ أوارَ الحبِّ فى كَبدى ذهبتُ نحو سقاء الماء أَبْترِدُ
هبنى بَرَدْتُ ببَردِ الماء ظاهره فَمَنْ لِنَارٍ عَلَى الأَحْشَاء تَتَّقِدُ ؟

فقال لها : نعم - فقالت : وأنت القائل :

قالت وأبثثتها سرِّى وبُحْتُ بِهِ قد كنتَ عندى تحبُّ السّتر فاسْتَتِرِ
أَلَسْتَ تُبْصِرُ من حولى ؟ فقلتُ لها غَطّى هواكِ وماَ ألقَى عَلَى بَصَرى

والسيدة سكينة ابنة الإمام أبى عبد الله الحسين ، كانت أمّها الرَّباب بنت امرىء القيس الكلبية . وقد تزوّجها عبد الله بن الحسن - وهو أبو عذرتها - فمات - ويقال قتل مع الحسين - فتزوّجها مصعب بن الزُّبَيْر فولدت له ابنة فأرسل إليها : سميها زبراء ، قالت : أسمّيها باسم إحدى أمهاتى ، فسمتها خديجة أو فاطمة . فماتت ابنتُها من مُصعب ورحل إلى العراق فقُتِلَ عنها .

---

(١) ابن خلكان ج ١ .

وخطب سكينة عبد الملك بن مروان . فقالت أمُّها : والله لا أزوّجها منه أبداً وقد قتل ابن أختي ـ تعني مصعباً ـ فتزوجها عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام ـ وأم عبد الله بن عثمان رملة ابنة الزبير بن العوام ـ فولدت له سكينة ابناً يقال له قرين ، وحكيما ، وابنة . ويقال ابنتين . فمات عنها، فتزوجها الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان فأصدقها صداقاً كثيراً . فقال عبد الملك : إنا تزوجنا أحسابنا فلم نغرق فى الصداق ، طلِّقها . فطلقها ، فقال أيمن بن خريم :

نــكحت سكينةُ فى الحساب ثلاثة فإذا دخلْتَ بها فأنت الرابع
إنّ البقيع إذا تتابع زَرْعُهُ خابَ البقيع وخاب فيه الزارعُ

فتزوجها زيد بن عمرو بن عثمان ـ فأصدقها صداقاً كثيراً واشترطت عليه ألّا يعصى لها أمراً ولا يغيرها ، ولا يمنعها شيئاً تريده ، ولا يمنع أَحداً يدخل إليها ، وأن يقيمها حيث رغبتها، فتزوّجها على هذه الشروط ، فقال له سليمان بن عبدالملك : يازيدبن عمرو ، إنك شرطت لسكينة أَلّا تطأ جارية ، وعندك أمثال المها . وأنا أعلم أنك لا تصبر ، وأنك قد وطئت بعضهن ، وشرطت لها شروطاً لاتستطيع الوفاء بها ، وقد حرمت عليك سكينة . فطلقها زيد، فتزوّجها إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، فأبى أهلها أن يرضوا ، فخاصموه وتحاكموا إلى إبراهيم ابن هشام ، فقال له : انطلق فادخل على أهلك ، فإن حال بينك وبينها أحد فامنعه . وكان إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف شرساً كثير الشّر ـ لـا أراد أن يتزوّجها بعد أن مكثت حيناً بعد زيد لاتخطب ـ فقالت لها مولاتها : جعلت فداك ، لا أرى أهل المدينة يذكروننا. فأجابتها : أما والله لأجعلن لهم حديثاً . وأرسلت إلى إبراهيم فقالت له : كيف أنت إن تزوّجْتُك ؟ قال تجدينى خير الناس .

وكانت ظريفة عفيفة ، وأديبة فصيحة ، فوق ما امتازت به من إشراق المحيَّا، وسماحة الخُلُق ، وملاحة الخَلْق . فقيل لها : ياسكينة ، أختك ناسكة وأنت مزاحة قالت : إنكم سميتموها باسم جدّتها المؤمنة ، وسميتمونى باسم جدتى التى لم تدرك الإسلام[1] .

(١) أختها فاطمة بنت الحسين ، سميت باسم جدتها فاطمة الزهراء ، وسميت سكينة بنت الحسين باسم آمنة جدتها أم الرسول صلوات الله وأزكى سلامه عليه .

ولقد شبّب الفرزدق بها ، وكان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه والياً على المدينة فأخرجه منها ونفاه . فقال جرير فى ذلك :

نَفَاكَ الأغرُّ ابنُ عبـد العزيز   بحقِّك تُنْفَى مِنَ المَسْجدِ

وطافت سكينة بنت الحسين ــ رضى الله عنهما ــ فلما انتهت إلى الركن اليمانى أعيت فى أوّل طواف ، ونظر إليها العرجىُّ ، فقال :

يَقْعُدنَ فى التَّطواف آونَةً   ويَطُفْنَ أحياناً على فَتر
حـتّى استلَمْنَ الركنَ فى أنَفٍ   من لَيْلِهِنَّ يطأنَ فى الأُزرِ
ففرَغْنَ فى سبعٍ وقدَ جهِدَتْ   أحشاؤهنّ موائل الخُمرِ

فسمعت شعره امرأة ووصفته لها ، فحفظت الشعر ، وقالت : « لو أن الجمال طُفْنَ سَبْعاً لجهدت أحشاؤهنّ » .

وكانت سكينة ــ رضى الله عنها ــ على جانب وافر من الخلال الطيّبة فوق ما امتازت به من كريم المحتد ، ودماثة الطبع والجمال .

عاتـكة بنت زيد :

كانت عاتـكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل ، عند عبد الله بن أبى بكر بن أبى قحافة . فأحبّها ، فكان ربّما ترك الصلاة جماعة بسبب مكثه معها ، لما اتصفت به من حسن الصورة وسماحة الخُلُق . وكانت عبلة الجسم ، مكتنزة اللحم ، على قسط وفير من العلم والأدب ، والمعرفة بالشعر ، ممّا دعا عبد الله إلى الانشغال بها . فأمره أبو بكر رضى الله عنه بطلاقها قائلًا له : قد فتنتك عن دينك ، وشغلتك عن معشيتك ، فطلّقها وقال :

ولم أر مثلى طلّق اليومَ مثلَهَا   ولا مثلَها فى غيرِ جرم تطلّقُ
لها خُلُق سمْحٌ ورأىٌ ومَنْصِبٌ   وخَلْقٌ سوىٌّ فى الحياءِ وَمصْدقُ
أعاتِكُ ، لا أنساكِ ما هبّتِ الصَّبَا   وما ناحَ قِرِىٌّ الحمـام المطوّقُ

أعاتِكُ لا أنساكِ ما حجّ راكبٌ　　وما لاح نجمٌ فى السماء مُحَلِّقُ
أعاتِكُ ، قلبى كلّ يوم وليلة　　إليك بما تَخفى النفوس مُعلَّقُ
ولولا اتقاء الله فى حقِّ والدٍ　　وطاعته ما كان منّا التفرُّقُ

فبلغ أبا بكر شعره فأمره فراجَعها ، وكانت عنده حتى مات شهيداً ، أصابه سهم فى حصار الطّائِف فانتقض به جرحُهُ فمات ، فقال لعاتكة حين احتُضِر : لك حديقةٌ من مالى ولا تتزّوجى . فقبلت ذلك . وقال حين راجعها :

أعاتِكُ ، قد طلّقت عنّى بغُصّةٍ　　وراجعت للأمر الذى هو كائنُ
كذلك أمرُ الله غادٍ ورائحٌ　　على النّاس فيه أُلْفَةٌ وتبايِن
وقد كان قلبى للتفرُّق طائراً　　وقلبى لما قد قرَّب الله ساكنُ
أعاتِكُ إنِّى لا أرى فيكِ سقطةً　　وإنّكِ قد حلَّتْ عليكِ المحاسِنُ
وإنّك ممّا زيَّنَ الله أمرَهُ　　وليس لما قد زيَّن الله شائنُ

فمات عبد الله وترك سبعة دنانير ، فقال أبو بكر : إنا لله ، كيف يصبر ابنى على سبع كيّات(١) فلما مات عبد الله ، قالت عاتكة ترثيه :

فُجِعْتُ بخير الناس بعد نبيِّهم　　وبعد أبى بكر ، وما كان قصَّرَا
فآليتُ لا تنفكّ عينى سَخينةً　　عليْكَ ولا ينفكُّ جِلدِى أَغْبَرَا
مدى الدهر ما غنّت حمامةُ أيكةٍ　　وما طرَدَ الليلُ الصباحَ المنوَّرَا
فللهِ عينًا من رأى مثله فتًى　　أكرَّ وأحْمَى فى الجهادِ وأصْبَرَا
إذا شرعت فيه الأسنّةُ خاضَها　　إلى الموت حتى يتركَ الرُّمْحَ أحْمرا

ثمّ ما لبثت أن خطبها عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقالت : إنى قد جعلتُ على نفسى ما لا أقدر معه على التزويج . فقال : استفتى ابن أبى طالب رضى الله عنه . فاستفتته فقال رُدِّى عليهم ما أخذته منهم وتزوّجى . فردَّت الحديقةَ ، فتزوَّجها عُمَرُ ـ رضى الله عنه ـ

---

(١) يعنى بذلك جزاءه على ما اكتنز من الدنانير « يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم . . . »

فلمّا دخل بها أولم ، فدنا علىٌّ رضى الله عنه من خِدْرِها وقال :

فآليت لا تنفكُّ عينى سخينة ... عليكَ ولا ينفَكُّ جلدى أغْبَرَا

فبـكتْ ، فقال عمر : ما أردتَ إلّا أن تُفْسِدَ علينا أهلَنَا .

ويقال : قال هذه المقالة عبد الرحمن بن أبى بكر . فلما قُتِلَ عُمَر قالت :

وفجَّعَنِى فيروزُ لادرَّ درُّهُ ... بأبيضَ تالٍ للقُــران منيبِ
رؤوفٍ على الأَدْنَى غليظٍ على العِدَا ... أخى ثقةٍ فى النــائباتِ نجيبِ
متى ما يقُل لا يكذبُ القولَ فعلُه ... سريعٍ إلى الخيرات غير قطوبِ

وقالت :

عينُ جودى بعــبرة ونحيبِ ... لا تملّى على الإمام النَّجيبِ
فجَّعتنى المنــونُ بالفارس المق ... دم يومَ الهياج والتذبيبِ(١)
عصمة النــاس والمُعين على الده ... ر وغيثِ المُنْتَابِ والمحروبِ
قُل لأهل الضرَّاء والبَاس : موتوا ... قد سقَتْهُ المَنونُ كأس شَعُوبِ

فخطبها طلحة بن عبيد الله ، فمشى فى أمرها هبار بن الأسود ، فأفسد عليه ، فتزوَّجها الزُّبَيْرُ بنُ العوَّام ، فنهاها عن الخروج إلى المسجد ، فقالت : أتنهانى عن الخروج إلى الصلاة وقد قال عليه الصلاة والسلام : « لا تمنعوا إماءَ الله من مساجد الله » فأعرض عن ذلك أياماً ، ثمّ قعد لها فى طريقها ليلًا ، فلمّا مرّت به ضرب عَجيزَتها بيده . وكانت عظيمةَ العجيزة جميلة ــ فرجعت إلى بيتها واسترْجَعت وقالت : سوءةً إنّا لله . وتركت الخروجَ ، فقال لها الزُّبَير : مالكِ تركت الصــلاة فى المسجد ؟ فقالت : قد فسَد الناسُ أبا عبد الله . فقُتِل عنها ، فقالت :

غدرَ ابنُ جرموز بفــارسِ بُهَمة ... يومَ اللقــاءِ وكان غيْرَ مُعَرّدِ
يا عمْرُو لو نبَّهْتَهُ لوَجَدْتَهُ ... لاطَائشاً رَعِشَ الجنَانِ ولا اليَدِ
شلَّتْ يمينُك إن قتلَت لمُسْلِماً ... حلَّتْ عليكَ عقوبةُ المُتعمِّدِ

(١) إكثار الذب والدفع . وفى الأغانى التلبيب .

ثم خطبها علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فقالت : إنّى أشفقُ عليك من القتل ، لم أتزوّج رَجُلًا إلّا قُتِل ، فتزوّجها محمد بن أبى بكر فخرجت معه إلى مصر ، فقُتِلَ ومُثِّلَ به ، فقالت :

لَئِنْ تقتُلوا أو تَمثُلوا بمحمّـد فما كانَ من شأنِ النِّساءِ ولا الحَمِرِ[1]

فتزوّجها عمرو بن العاص .

وروى أن عبد الله بن عُمر ــ رضى الله عنهما ــ حدَّث مرَّةً عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بقوله : « لا تمنعوا النساء من الخروج بالليل إلى المساجد » فقال ابن له : لاتَدَعْهُنَّ يَخْرُجْنَ فيتَّخِذنَه دَغَلًا. فزجره وقال له : أقول : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ثمّ تقول : لا تَدَعْهُنَّ ؟ !

وذكر أبو بكر الخرائطى رحمه الله فى كتاب « اعتلال القلوب » قال : كانت عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيْل عند الزبير بن العوام رضى الله عنهما ــ فاستأذنته فى الخروج إلى المسجد ، فشقّ عليه ذلك وكره أن يمنعها . فأذن لها ، ثم انكمن لها فى موضع مظلم من الطريق ، فلمّا مرّت عليه وضع يده على بعض جسدها ، فكرّت راجعة وسبقها الزُّبَيْر إلى الدار ، فلما دخلت عليه تُسَبِّحُ ، قال لها : ماردَّكِ عن وجهك ؟ قالت : كنا نخرج والناس ناسٌ ، وأمّا اليوم فلا ، وتركت طلب المسجد .

زواج امرئ القيس :

نقل الجرجانى فى كتاب « الكنايات » عن كتاب « الأغانى » لأبى الفرج الأصبهانى ، أن عبد الملك بن عمير قال : آلى امرؤ القيس بن حجر ألا يتزوّج امرأةً حتى يسألها عن « ثمانية وأربعة واثنين » فجعل يخطب النساء ، فإذا سألهنّ عن هذا قلن : أربعة عشر . . فبينما هو فى جوف الليل إذا هو برجل ــ معه ابنةٌ صغيرة له كأنها البدر لتمه، فأعجبته فقال لها:

---

(١) يقال: مثل به يمثل مثلا ، مثل: قتل يقتل قتلا ، ومثل به تمثيلا : إذا نكل به .

يا جارية ، ما ثمانية وأربعة واثنان ؟ قالت : أمّا ثمانية فأطباء الـكلبة ، وأما أربعة فأخلاف الناقة ، وأما اثنان فثديا المرأة. فخطبها من أبيها ، فزوّجه إيَّاها وشرطت هى عليه أن تسأله ليلة بنائها عن ثلاث خصال ، فأجابها موافقاً ، وعلى أن يسوق إليها مائة من الإبل ، وعشرة أعبد ، وعشر وصائف ، وثلاثة أفراس . ثمّ إنه أرسل عبده إلى المرأة فأهدى إليها نِحْياً من سمن ، ونِحْياً من عسل ، وحلة من قصب ، فنزل العبد فى بعض المياه فنشر الحلة فلبسها ، ثمّ أتاها ــ وهى خلوف ــ فسألها عن أبيها وأمّها وأخيها ، ودفع إليها هديّتها . فقالت له : أعلمْ مولاكـ أن أبى ذهب يقرّب بعيداً ويبعد قريباً ، وأن أمى ذهبت تشقُّ النفس نفسين ، وأن أخى يراعى الشمس ، وأن سماءكم انشقّت ، وأن وعاءكم نضب . فقدِمَ الغلام على مولاه فأخبره ، فقال : أمّا قولها ذهب يبعد قريباً ويقرِّب بعيداً فإن أباها ذهب يحالف على قومه ، وأمّا قولها ذهبت تشق النفس نفسين فإنّ أمّها ذهبت تقابل نفساء ، وأمّا قولها أخى يراعي الشمس فإنّ أخاها فى سرح له يرعاه ، وأمّا قولها : إن سماءكم انشقّتْ فإن الُبرْد الذى بعثت به انشقّ ، وقولها : إنّ وعاءكم نضب فإن النِّحْيَيْن اللذيْن بعثت بهما نقصا . فاصدقنى ، فقصّ عليه الغلام القصة .

ثمّ إن امرأ القيس ساق مائة من الإبل ، وخرج نحوها ومعه الغلام ، فقام الغلام يسقى الإبل ، فعجز عنها ، فأعانه امرؤ القيس . فرمى به الغلام فى البئر ، وخرج حتّى أهل المرأة بالإبل ، وأخبرهم أنه زوجها . فقيل لها : قد جاءكـ زوجك . فقالت : والله لاأدرى أزوجى أم لا ؟ . ولـكن انحروا له جزوراً وأطعموه من كرشها وذنبها . ففعلوا وأ كل ، ثم قالت : اسقوه لبناً خاثراً أى حامضاً ــ فشرب فقالت : افرشوا له عند الفرث والدم ، فنام .

فلماأصبحت أرسلت إليه : إنّى أريدأن أسألك فقال : سلينى عمّا شئت . فقالت: مِمَّ تختلِج شفتاكـ ؟ فقال : لتقبيلى إياكـ . قالت : فمِمّ يختلج نخذاكـ ؟ فقال : لتورُّكى إياكـ . قالت : عليكم فشدُّوه وثاقاً ، ففعلوا .

واجتاز قوم بامرئ القيس فأخرجوه من البئر ، فرجع إلى حيِّهِ وساق مائة من الإبل ، وأقبل إلى امرأته فقيل لها : قد جاء زوجُك فقالت : والله لا أدرى أزوجى أم لا ؟ ولـكن

انحروا له جزوراً وأطعموه من كرشها وذنبها ففعلوا . فلمّا أتوه بذلك ـ قال : فأين الكَبِدُ والسّنامُ واللَّحْى ؟ ! وأبى أن يأكل . فقالت : اسقوه لبناً خاثراً . فأتى به ، فأبى أن يشربه وقال : أين الضريب والربية ؟! فقالت : افرشوا له عند الفرث والدم ، فأبى أن ينام . وقال: افرشوا لى على القلعة الحمراء ، واضربوا عليها خباء . ثم أرسلت إليه : هَلُمَّ شَرْطَتى عليك فى المسائل الثلاث ، فأرسل إليها : أن سَلى عمَّا شِئت . فأرسلت إليه :ممَّ تختلج شفتاك ؟ قال : لشرب الشَّمَشَعَاتِ . قالت : فمِمَّ يختلِجُ كَشْحاك ؟ قال : للبسى المحبَّرات . قالت : فمّ يختلج فخذاك ؟ قال : لركوبى المَطهَّمات . قالت : هذا زوجى لعمْرى فعليكم به ، واقتلوا العبد ، فقتلوه .

ودخل امرؤ القيس بالجارية التى أحبّها حين رآها ، فأعجب بجمالها ، وسألها ، فكان جوابها شافياً .

وكانت بذكائها جديرة بأن تكون قرينة محبوبة له .

ولاء أم عقبة لابن عمها غسان :

كانت أمّ عقبة ، وهى امرأة من بنى يَشْكُر ـ عند ابن عمٍّ لها يقال له : غسان ، ولما شعر بدنو أجله أو قرب موته سألها عما تصنع بعده قائلًا :

أخبرى بالذى تريدين بعدى والذى تضمرين ياأمّ عقبهْ
تحفظين من بعد موتى لما قد كان منى من حسن خلق وصحبه
أم تريدين ذا جمال ومال ؟ وأنا فى التراب فى سجن غُربه

فقالت : والله لا أجيبُك بكذب ، ولأجعلنّه آخر حظى منك ، وأنشدته :

قد سمعت الذى تقول وما قد ياابن عمّى تخاف من أمّ عقبهْ
أنا من أحفظ الوداد وأرعا هُ لما قد أوليْتَ من حُسن صحبه
سوف أبكيك ما حييتُ بنوْح ومراث أقولها أو بندبَهْ

فلما سمعها أنشأ يقول :

أنا والله واثق بك لكن احتياطاً أخافُ غدر النساء
بعد موت الأزواج ياخير من عو شر ، فارعىْ لى حقَّ حُسْن الوفاءْ
إننى قدر جوت أن تحفظى العهـ دَ ، فكونى إذا متُّ عند الرجاء

***

زواج حاتم الطائى (١) :

أخبرنا محمد بن الحسن بن دُرَيْدٍ قال : أخبرنا عبد الرحمن ابن أخى الأصمعى ، عن عمّه ، وأبو حاتم عن أبى عُبَيدة . قال :

كانت امرأة من العرب ، ذات جمال وكمال وحسب مال ، قد آلت أن لا تزوِّج نفسها إلّا كريماً ، ولئن خطبها لئيم لتجدعنّ أنفه ، فتحاماها الرجال ، حتّى انتدب لهـا زيد الخيل ، وحاتم بن عبد الله ، وأوس بن حارثة بن لام الطائيون ، فارتحلوا إليها ، فلمّا دخلوا عليهاقالت : مرحباً بكم، ما كنتم زواراً ، فما الذى جاء بكم؟ فقالوا : جئنا زواراً وخطاباً .

قالت: أكفاء كرام . فأنزلتهم ، وفرقت بينهم ، وأسبغت لهم القِرَى وزادت فيه .

فلمّا كان اليوم الثانى بعثت بعض جواريها متنكّرة فى زىّ سائلة ، تتعرّض لهم ، فدفع لها زيد وأوس شطر ما حمل إلى كلّ واحدٍ منهما ، فلمّا صارت إلى رحل حاتم دفع إليها جميع ما حمل إليه .

فلمّا كان اليوم الثالث ، دخلوا عليها فقالت : ليصف كلّ واحدٍ منكم نفسه فى شعره فابتدر زيد وأنشأ يَقول :

هــلّا سألتِ بَنِى نَبهانَ ما حَسَبِى عند الطعانِ إذا ما احمرَّت الحَدقُ
وجاءت الخيل مُحْمَرًّا بوَادرُها بالمــاء يسفح عن لَبَّاتِها العَلَقُ

---

(١) فى أمالى الزجاجى .

والخيلُ تعلمُ أنى كنتُ فارسَها ... والجارُ يعلمُ أنى الوابلُ الغَدِقُ
هذا الثناء ، فإن تَرْضَىْ فراضيةٌ ... أو تسخَطى فإلى من تعطفُ العُنُقُ

وقال أوس بن حارثة : إنك لتعلمين أنا أكرم أحساباً وأشهر أفعالًا من أن نصف أنفسنا لك، أنا الذى يقول فيه الشاعر:

إلى أوْس بن حارِثة بن لامٍ ... ليقْضِىَ حاجَتى فيمن قضاهاَ
فما وطئ الحصا مثل ابن سُعْدى ... ولالبس النعال ولا احتذاهاَ

وأنا الذى عُقَّت عقيقته فأعتقت عن كل شعرة منها نسمة ، وأنشأ يقول :

فإن تنــكحى ماوية الخير حاتما ... فما مثلُهُ فينا ولا فى الأعاجم
فـتًى لا يزال الدهر أكبر همِّه ... فــكاكَ أسير أو معونة غارم
وإن تنــكحى زيداً ففارس قَوْمهِ ... إذا الحربُ يوماً أقعدتْ كلّ قائمِ
وإن تنــكحينى تنــكحى غير فاجرٍ ... ولا جارفٍ جرفَ العشيرة هادمِ
ولَا مُتَّقٍ يوماً إذا الحربُ سَمَّرتْ ... بأنفسها نفسى كفعل الأشايمِ
وإن طارقُ الأضيافِ لَاذَ برحلهِ ... وجدتِ ابن سُعْدَى للقِرَى غيرعاتمِ (١)
فأىّ هُدًى أهدى لك الله فاقْبِلِى ... فإنّا كرام من رُؤوس الأكارِمِ

وأنشأ حاتم يقول :

أماوىَّ قد طال التجنُّب والهَجْرُ ... وقـد عَذَرْتنى فى طلابـكم العُذْرُ
أماوىّ إما مانعٌ فمُبَيِّنٌ ... وإمّا عطـاءٌ لا يُنَهْنِهُهُ الزَّجْرُ
أماوىّ ما يغنى الثّراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصَّدْرُ
وقــد عــلم الأقوامُ لو أنَّ حاتمــاً ... أراد ثراء المــال كان له وَفْرُ

إلى أن أتى على القصيدة ، وهى مشهورة . فقالت : أما أنت يا زيد ، فقد وترت العرب ، وبقاؤك مع الحُرّة قليل . وأمّا أنت يا أوس ، فرجل ذو ضرائر ، والصبر عليهنّ شديد . وأمّا أنت ياحاتم ، فمَرْضِىُّ الخلائق ، محمود الشيم . كريم النّفس ، قد زوَّجْتُك نفسى !

(١) أى : غير مبطئ .

حبّ سحيم لعائشة بنْت طلحة :

قال أبو الحسن على المدائنى :

تزوَّج سحيم بن حفص ـ بعائشة ابنة طلحة عبد الرحمن بن أبى بكر ، وهو أبو عذرتها فولدت له أولاداً ، منهم طلحة الذى يقول له الشاعر :

أيا طَلْحَ إن كنتَ أعطيتنى جُمَالِيَّة تستخِفّ الضَّفَارَا
فما كان نفعك لى مرّةً ولامرَّتيْن ولكنْ مرارَا
أبوكَ الذى بايع المُصْطَفى وسار مع المهتدى حيث سارَا

وقال أيضاً عن سحيم : صارمت عائشة زوجها ، وكان فى خُلُقها زعارة ، وكان يلقى منها البلاء ، فقيل له : طلِّقها، فقال :

وإنّ فراقى أهل بيت أودُّهُم لهُم زُلفةٌ عندى لإحدى العظائم
فكيف بصفو العيش من بعد بَيْنِهِم وسُخْطُهُمُ يوماً . . عن الأنفِ خاطِمى

وخطبها مصعب بن الزبير فقالت : إن تزوَّجْتُه فهو علىّ كظهر أمّى . ثم سألت أهل المدينة فقالوا : اعتِقى رقبةً وتزوَّجيه . فتزوّجها فأصدقها خمسمائة ألف، وأهدى لها خمسمائة ألف . فقال أنسُ بن أبى أنس بن زنيم :

تعطى الفتاة بألف ألف كاملٍ وتبيت سادات الجنـــود جياعاَ
لو فى أبى حفص أقولُ مقالتى وأبثّه ما قد أرى لارْتاعاَ

فبلغ الشعرُ عبد الله بن الزبير فقال : إنّ مصعباً قدم خيره .

وقال أبو الحسن عن الشَعبي : كان يجالسُنا أيام الفتنــــة رجل فقلت : من أنت ؟ قال : مولى عائشة بنت طلحة ، خطبها مصعبُ بن الزُّبَيْر وتزوَّجها فأحبّها ، وكانت امرأة جميلة فى أذنها عِظَمٌ ، وفى ساقها حموشَةٌ (١) . وقال قوم : فى قدمها عِظَمٌ .

---

(١) الحموشة : الدقة .

ورُوىَ عن الشعبي أنه قال : أخذ بيدى مصعب، فمضى وأنا معه حتى دخل منزله ويده فى يدى ، فرفع ستراً فإذا عائشة ، وإذا هىَ أحسن النّاس وجهاً ، فأعرضت وخلّانى ودخل ، فرجعت . ثمّ رحتُ إليه بالعشىّ وهو جالس ، فأشار إلىّ بيده وقال : أرأيت ذاك الإنسان ؟ قلت : نعم . فقال : أفرأيت مثـــله ؟ فقلت : لا . قال : تلك ليلى التى يقول فيها الشاعر :

ومازلتُ من ليلى لدن طرّشاربى … إلى اليوم أُخفى حبّها فأباينُ[1]

وأحملُ فى ليـــلى لقلبى ضَغينةً … وتُحْمَل فى ليلى علىَّ الضغائنُ

ياشعبي : رأيت عائشة وما يدلُّك إذ رأيتها من صلة ، ثمّ قال لا بن أبى فروة : أعط الشعبي عشرة آلاف درهم وعشرين ثوباً . فقتل عنها مصعب. وأنبأ الحسن قال : قال سلم بن قتيبة : رأيت عائشة بنت طلحة بمـكة فى المسجد ، فسلّمت عليها وانتسبت لهـا ، فبـكت وقالت : يرحم الله مصعب، ثم أرادت النهوض ، فأخذت امرأتان بيديها ـ وعندها نسوة . فاعتمدت على المرأتين ، فما كادت أن تستقل حتّى خذلها وركاها ، فقالت إحـدى المرأتين: إنّابك لمتعبات ، وكانت مديدة الجسم ، مكتنزة اللحم ، على نصيب وافر من حسن الصورة وإشراقها .

الثريا وعمر بن أبى ربيعة[2] :

حدثنا الزبير بن بكار ، عن مَسْلَمَة المخزومى عن أيوب : أنّ عمر بن أبى ربيعة كان متعلقا بالثريا بنت على بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر . وكانت أهْل ذلك جمالًا وتماماً ، وكانت تصيف بالطائف . وكان عمر يغدو عليها على فرسه ، فيسأل الرّكبان الذين يحملون الفاكهة من الطائف عن الأخبار ، فلقى يوماً بعضهم فسأله عن أخبارهم ، فقال : ما استطرفنا خبراً ، إلّا أننى سمعت عند رحيلنا صوتاً وصياحاً عالياً على امرأة من قريش نسيت اسمها ، ولعله نجم فى السماء . فقال عمر : الثريا ؟ قال : نعم .

---

(١) البيتان لـكثير عزة كما فى الأغانى (٢ : ١٣٢) وروايته : « وأداجن » .
(٢) فى الأغانى ج ١ .

وكان عمر قبل ذلك قد بلغه أنها عليلة ، فَوَجَّه فرسه إلى الطائف يركضُه ، وسلك أخشن الطرق وأقربها ، حتّى انتهى إلى الثريا ، وقد توقعته وهى تتشوف له فوجدها سليمة ومعها أختاها : رضيا وأم عثمان ، فأخبرها الخبر فضحكت وقالت : أنا أمرتهم لأختبر مالى عندك فقال عمر فى ذلك هذا الشعر :

تشكّى الكُمَيْتُ الجرْىَ لما جهدتُه ... وبيّن لو يسطيعُ أن يتكلّمَا
فقلت له : إن ألقَ للعين قرَّةً ... فهان علىّ أن تكلّ وتسأمَا
لذلك أدنى دون خيلى رباطه ... وأوصى به ألّا يهان ويكرما
عدمت إذن وفرى وفارقت مهجتى ... لئن لم أقل قِرْناً إنِ اللهُ سَلَّما

فقال مَسلَمَةُ بن إبراهيم : قلت لأيوب بن مَسْلَمَة : أكانت الثرّيا كما يصف عمر ابن أبى ربيعة ؟ فقال : وفوق الصّفة ، كانت والله كما قال عبدُ الله بن قيس :

حبذا الحجُّ والثريا ومن بالـ ... خيف من أهلها وماقى الرِّحالِ
ياسليمان إن تلاق الثريا ... تلقَ عَيْشَ الخلود قَبل الهلال
دُرَّةٌ من عقائل البحر بكر ... لم يشنها مُثَاقبٌ للآلى
تعقد المئزر السَّخَام من الحرّ ... على حِقو بادنٍ مكسالِ

وحدّثنا عمر بن شبّة قال : أخبرنا محمد بن يحيى قال : زعم عبيد بن يعلى — قال حدّثنى كُثيِّر بن كُثيِّر السهمى قال : لما ماتت الثريا ، أتانى الغريض فقال لى : قل أبيات شعر أنح فيها على الثريا ؛ فقلت :

ألا ياعين مالكِ تدمعينا ... أمن رمدٍ بكيت فتكتحلينا ؟
أم أنت حزينة تبكين شجواً ... فشجوك مثله أبكى العيونا !

***

أبو الأسود الدؤلي وامرأته وابنهما :

قال صاحب « سناء المهتدى » .

تنازع أبو الأسود الدؤلي وامرأته في ابن لهما ، وترافعا إلى زياد ـ وأراد كلٌّ أخذه ، فقالت المرأة : أصلح الله الأمير ، هذا ابني ، كان بطني وعاءه ، وحجري فناءه ، وثديي سقاءه ، أكلؤه إذا نام ، وأحفظه إذا قام ، فلم أزل بذلك سبعة أعوام ، حتى استوفى فصاله ، وكملَتْ خصاله ، واستوكعت أوصاله ، وأمَّلتُ نفعَه ، ورجوتُ دفعَهُ ، أراد أن يأخذه مني كَرْهًا ، فأنصِفني فقد أراد قهري ، وحاول قَسْري .

فقال أبو الأسود : حملته قبل أن تحمله ، ووضعتُه قبل أن تضعه ، وأنا أقوم عليه في أدبه ، وأنظر في تقويم أوده ، وأمنحه علمي ، وأُلْهِمُه حِلْمي ، حتّى يَكْمُلَ عقله ، ويَستكمل نُبْله .

فقالت المرأة : صدق أصلحك اللهُ . حمله خِفًّا ، وحملته ثقلًا ، ووضعه شَهْوَةً ، ووضعتُه كرْهاً .

فقال زياد : اردُدْ على المرأة ولدَها فهي أحقُّ به منك ، ودعنا من سَجْعِكَ .

* * *

المجرّد والمرأة التي تبعها :

قال ابن وهب : تبعتُ جارية إلى منزلها ، طامعاً فيها . فسقتني نبيذاً وغنَّت على عُودها بصوتٍ ما سمعت أعذبَ منه ، ولا أَنْفَذَ إلى القلب :

كأنّي بالمجرَّدِ قَدْ علَتْهُ . . نِعالُ القوْم أو خُشُبُ السَّوارِي

فقلت لها : جُعِلْتُ فداءكِ ، لم أفهم هذا الشّعر ولا أحسبهُ ممّا يُغنَّى به . قالت : أنا أوّلُ من تغنّى به ، وإنّما هو بيتٌ لا يدرى قائله ومعه بيتٌ آخر .

قلتُ : سُرِّينى بأن تُغَنِّيه لعلّى أفهمُ . قالت : ليس هذا وقته ، هو آخر ما أتغنى به .

قال : وجعلْتُ لا أنازعُها شيْئاً إجلالًا لها وإعظاماً، فلما أمسيْنا وجاءت العشاء الأخيرةُ، وضعت عودَها ، فقمتُ فصلَّيْتُ وما أدرى كم صلَّيتُ عجلَةً وتشوُّقاً . فلما سلمتُ ، قلتُ : تأذنين لِى جُعلتُ فداءكِ فى الدنوِّ مِنْكِ ؟

قالت : هذا لكَ، ولكن بعد أن يتجرّد كلٌّ منّا. ثمّ ذهبت كأنها تريد أن تخلع ثيابها، فكدت أن أشقّ ثيابى من العجَلة للخروج منها ، ولمّا قمت بين يديها متجرِّداً . قالت : انته إلى زاوية البيت، وأقبل إلىّ مقبلًا ومدبراً. قال : وبيْنَا أنا فى طريقى إلى الزاوية، أردت اجتياز حصير فى الغرفة ، فما كدت أن أستقرّ فوقه حتّى هبط بى فى خَرْقٍ تحته ، وإذا أنا فى السوق مجرّدًا ، وإذا شيخان هناكَ قد كمنا فى ناحية ، وأعدّا نعالها . فلمّا هبطت عليهما بادرانى فقطّعا نعالَهُمَا علَى قَفَاى ، وجاء أهلُ السوق ، فشاركوهم فى ضربى حتّى أنْسيتُ اسمى وبينا أنا أُخْبَطُ بنعالٍ مَخْصُوفةٍ ، وأيْدٍ ثِقَالٍ ، وخُشُبٍ دِقَاقٍ ، إذا صوتٌ من فوق البيت يغنّى :

كأنى بالمجرّد قد علته ... نعالُ القَوْمِ أو خُشُبُ السَّوارِى
ولو عِلمَ المجرّدُ ما أردنَا ... لبادرَنا المجرّدُ فى الصحارِى

الشعراء العشاق

جميل بثينة[1] :

إنَّه لمعلوم أن بُثَيْنَةَ محبوبة جميل قائد الشعر، وقد نسب بعض الشعراء بنساء مخصوصة، واشتهر كلّ واحد منهم بمن تغزل بها ، فاشتهر جميل ببثينة ، واشتهر كثيّر بعزّة ، وعروة ابن حزام بعفراء ، وقيس مجنون بنى عامر بليلى ، وقيس بن ذريح بلبنى ، والمرقش بفاطمة ، وذو الرمّة بميَّة وهى الخرقاء ، والعبّاس بن الأحنف بفوز .

وبعض الشعراء لا يلتزم التغزّل بامرأة مخصوصة كامرئ القيس .

وبُثَيْنَةُ مصغَّر . بثْنَةَ ـ قال صاحب الصحاح : البثْنَةُ ـ بالتسكين : الأرض اللينة ، وبتصغيرها سمّيت : بُثَيْنَةَ .

أمّا قصة جميل بن معمر العذرى ، فقد روى صاحب « الأغانى » بسنده ، قال :

اجتمع جميل مع جماعة من رهطه يتحدثون. فقال بعضهم : بالله حدّثنا بأعجب يوم لك مع بثينة . قال : نعم. مُنعَتْ من لقائى مدّة ، وتعرّضت لها جهدى فلم أصل إليها ، فبينا أناذات ليلة جالس بين شجرات بالقرب من حيها ، وقد أقمتُ ثلاثا أنتظرها ، إذا شخص قد أقبل إلىّ ، فجلست وانتضيت سيفى ، فلم ألبث أن غشينى الشخص ، فإذا هى بثينة قد أكبّت علىّ. فأدهشنى ذلك، وبقيت متحيرا لا أحير جوابا إليها، ولا أراجعها كلمة حتى برق الصبح، وما استطعت أن أكلِّمها .

قالوا : فهل قلت فى ذلك شيئاً ؟ فأنشدهم قصيدة طويلة . .

وهذه أبيات من أوّلها :

أهاجَك أم لا بالتناصب مَرْبَعُ ورسمٌ بأحراج الغديرْن ، بَلْقَعُ

---

(١) فى خزانة الأدب ج ٣ .

دِيارٌ لليلى⁽¹⁾ . . إذ نحُلُّ بها معاً ... وإذ نحن منها فى المودّة نَطْمَعُ
فياربّ حَبّبنى إليها ، وأعطِنى الـ ... مودَّةَ منها ، أنت تعطى و تَمْنَعُ
وإلّا . . فصبِّرْنى وإن كنت كارهاً ... فإنِّى بها ياذا المعارج مُولَعُ
فإن يَكَ قد شطتْ نواها وقد نأت ... فإنّ القُوَى ممَّا تُشِتّ وتجمَعُ
جزعتُ غداة البيْن لما تَحمّلُوا ... وما كان مثلى يا بثَيْنَةُ يَجزَعُ
تمتّعتُ منها يومَ بانُوا بنظرةٍ ... وهل عاشقٌ من نظرةٍ يَتمتَّعُ ؟

وروى صاحب الأغانى عن الهيثم أن جميلًا طال مقامه بالشام ، ثم قدم وبلغَ بُثَيْنَةَ خبره . فراسلته مع بعض نساء الحىّ ، تذكر شوقها إليه ، ووجدها به ، وواعدته لموضع يلتقيان فيه ، فصار إليها ، وحادثها طويلًا ، وأخبرها بحاله بعدها .

قال : وقد كان أهلُها رصدوها ، فلمَّا فقدوها تبعها أبوها وأخوها حتى هجما عليها ، فوثب جميل فسلّ سيفه وشدّ عليهما ، فاتقياه بالهرب . وناشدته بثينة بالانصراف وقالت : إن أقمت فضحتنى ، ولعل الحىّ أن يلحقوك ، فأبى وقال : أنا مقيم ، وامضى أنت وليصنعوا ماأحبُّوا . فلم تزل تناشده حتى انصرف . وقد هجرته مدةً طويلةً ولم تلقه ، فقال هذه الأبيات السِّتَّةَ :

بمختلِف الأرواح بَيْنَ سُويْقَةٍ ... وأَحْدَبَ⁽²⁾ كادت بعد عهدك تخْلقُ⁽³⁾
أضرّت بها النكباء⁽⁴⁾ كل عشِيَّةٍ ... ونفحُ الصَّبا⁽⁵⁾ والوابلُ⁽⁶⁾ المتبعِّقُ⁽⁷⁾
وقفت بها حتّى تحلّتْ عَمَايَتى⁽⁸⁾ ... وملّ الوقوف الأَرْحَبىُّ⁽⁹⁾ المنوّقَ⁽¹⁰⁾

---

(١) لايخفى أن جميلا ينسب ببثينة . وإنما ذكرها باسم ليلى جريا على عادة الشعراء فى إخفاء أسماء معشوقاتهم أحيانا .

(٢) سويقة وأحدب : موضعان. (٣) تخلق : تبلى ، يقال خلق الثوب وأخلق .

(٤) النكباء : كل ريح تهب بين مهب ريحين لأنها نكبت عن مهبها أى : عدلت .

(٥) نفح الصبا : النسيم العليل . (٦) الوابل : المطر العظيم . (٧) المتبعق : المطر العظيم.

(٨) عمايتى : بفتح العين من العماية، هى من عمى القلب . (٩) الأرحبى : الجمل النجيب منسوب إلى أرحب وهى قبيلة ، وقيل لفحل، وقيل موضع . (١٠) المنوق : المذلل كالناقة .

وقال خليلى : إنّ ذا لصَبَابةٌ ألا تَزجرُ القلب اللجوج فيلحق
تَعزَّ وإن كانت عليك كريمةً لعلَّك من أسباب[١] بثنة تُعْتقُ
فقلت له : إنّ البُعَادَ يشُوقنى وبعض بعادِ البين والنأيِ أشْوقُ

كثيِّر عزة :

من «بلاغات النساء»[٢] ماحدثنيه الزبيربن بكار، قال : حدثنى سليمان بن عباس السَّعدىُّ قال : كان كثير بن عبد الرحمن ياتى من يحج من قريش فى كلّ سنة بهديّة ، فغفَل سنة عنهم ، حتى أصبح يوماً فركب من منزله بكَلْبة جَمَلا ، واستقبل الشّمس فى يوم صائف ، فلم يأت قديداً حتّى احترق وضجرَ وجاء وقد راح النّاس ، إلا فتًى من قريش تخلَّف ومعه راحلةٌ له ، على أن يلحق بهم .

قال الفتى القرشى : فإنّى لجالس إذ أقبل كثيِّر فجلس إلى جنبى ولم يُسَلِّمْ . ثم جاءت امرأة جميلةٌ وسيمةٌ ، فاستندت إلى خَيْمَةٍ من خيام قديد ؛ ثمّ قالت له : أنت كثيِّر بن أبى جمعة ؟ قال : نعم . قالت أنت الذى تقول :

وكنت إذا ماجئت أجللن مجلسى وأعرضن عنّى هيبةً لَا تجهماَ

قال : نعم . فتأمّلت وجهه مبتسمة وقالت : أعلى مثل هذا الوجه هيبة ؟ إن كنت كاذباً فعليك لعنة الله والملائكة والنّاس أجمعين .

فقال لها : كثيِّر : من أنت ؟ واحتدّ عليها وهى ساكتة . ثمّ قال لها : لو أعلم من أنت لقطَّعتكِ وقطَّعْتُ قومك هجاءً. فلماسكن ، قالت له : أأنت الذى تقول:

متى تنشروا عنى العمامة تُبصروا جميــل المحيا أغفلتْهُ الدَّواهنُ ؟

أنت جميل المحيا ؟ ! إن كنت كاذباً فعليك لعنة الله والملائكة والنّاس أجمعين :

(١) وقوله : لعلك من أسباب بثنة . روى بدله : لعلك من رق لبثنة . . .

(٢) فى إرشاد الأديب ص ١٣٧ .

فضجر كثيّر ، وسكتت عنه حتّى سكنَ . ثمّ قالت : أنت الذى يقول :

يروق العيون الناظراتِ كأنّه هِرَقْلِىٌّ وزنٍ أحمرُ التِّبْرِ وازِنُ

أهذا الوجه يروقُ العيون ؟ إن كنت كاذباً فعليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . فازداد ضجراً وقال : قد أعلم من أنت، ولأقطّعَنَّكِ وقومَكِ، وقام . فالتفتُّ فإذا هى قد ذهبَتْ.

قال القرشى : فلما كان منصرَفِى من قديد، سألت مولاة هناك عن تلك المرأة وقلت لها : لك علىّ إن أخبرتنى من هى أن أطوى لك ثوبىّ هذين إذا قضيت إحرامى وآتيك بهما ـ فأدفعهما إليك . قالت : والله لو أعطيْتَنى وَزْنَهُمَا ذهباً ما أخبرتُك مَنْ هى . هذا كُثيِّرٌ ـ وهو مولاى ـ قد أبيت أن أخبره مَنْ هى .

قال القرشىّ : فرحت وبى أشدّ ممّا بكثَيِّرٍ !.

***

عمر بن أبى ربيعة :

كان عمر بن أبى ربيعة[١] معروفاً بشغفه حبًّا فى النساء ، وعشقاً لمحاسنهن ، والتشبيب بمن يهواها ، وهذه أبيات له :

فلمّا تقضّى الليلُ إلّا أقلّهُ وكادتْ توالى نجمِه تتَغَوَّرُ
أشارت بأن الحىّ قد حان منهم هبوب ولكن موعد لك عَزْوَرُ
فلما رأت من قد تنبّه منهمُ وأيقاظَهمقالت : أشِر كيف تأمُرُ ؟
فقلت : أباديهم فإمّا أفوتُهم وإمَّا ينال السَّيف ثأرا فيثأرُ
فقالت : أتحقيقاً لما قال كاشحٌ علينا ، وتصديقا لما كان يؤثَرُ
فإن كان مالا بُدَّ منه فغيْرُهُ من الأمر أدنى للخفاء وأسترُ
أقُصُّ على أُختىّ بدءَ حديثنا ومالىَ من أن تعلما متأخّرُ

---

(١) فى خزانة الأدب ج ٣ .

لعلَّهُمَا أن تبغيَا لكَ مَخْرجاً ... وأن ترحباَ صدرا بما كنت أحصرُ
فقالت لأختيها : أعينا على فتى ... أتى زائرا والأمر للأمر يُقْدَرُ
فأقبلتا ، فارتاعتا . . ثمّ قالتا : ... أقِلّى عليكِ اللوم فالخطبُ أَيْسَرُ
يقومُ فيمشى بيننا متنكراً ... فلا سرُّنا يفْشُو ولا هُوَ يُبْصَرُ
فكان مجَنِّى دونَ مَنْ كنت أتّقى ... ثلاث شخوص: كاعبان ومعصرُ

من شعر أميّة بن الصلت فى الغزل :

قال أميّةُ بن أبى الصلت من قصيدة له من « الطويل » :

أَلَا حيِّيَا ليْلى أجدَّ رحيلى ... وآذن أصحابى غداً بقُفولِ
تبدَّت له لَيْلَى ليذهَب عقلَه ... وشاقَتْكَ أمُّ الصَّلْتِ بعد ذُهولِ
أُريد لأنسى ذكرَها وكأَنَّما ... تمثَّلُ لى لَيْلَى بكلِّ سبيلِ
إذا ذُكرت لَيْلَى تغشَّتْكَ عَبْرَةٌ ... تعِلّ بها العَيْنانِ بعد نُهولِ
وكم من خليلٍ قال لى : هل سألتها ؟ ... فقلتُ : نعم ، لَيْلَى أضلُّ خليلِ
وأبعدُه نيلًا ، وأوشَكُه قِلًى ... وإن سُئِلَتْ عُرفاً فشرُّ مَسُولِ
لقد كذب الواشون ما بُحْتُ عندهمْ ... بلَيْلَى ، ولا أرسلْتُهمْ برَسُولِ
فإن حاول الواشون عنّى بكِذْبَةٍ ... فروها ، ولم يأتُوا لها بحويل
فلا تعجلى يالَيْلُ أن تتفهَّمى ... بنُصحٍ أتى الواشُونَ أم بحُبولِ
فإن تبذُلى لى منك يوماً مودَّةً ... فقِدْماً تخذتُ الفرضَ عند بَذُولِ
وإن تبخلى يالَيْلُ عِّنى فإنِّنى ... تُوكِّلُنى نفسى بكلّ بخيلِ
ولستُ براضٍ من خليلى بنائلٍ ... قليلٍ ، ولا أرْضَى له بقِليل

---

(١) فى خزانة الأدب ج ٣ .

وليس خليلى بالملول ، ولا الذى ... إذا غِبْتُ عنه باعنى بِخليلِ
ولكن خليلى من يديمُ وصاله ... ويحفظُ سرِّى عند كلِّ دخيلِ
ولم أرَ من لَيْلَى نوالًا أعدّهُ ... أَلَا ربَّمَا طالبت غيرَ مَنيلِ
يلومُكَ فى لَيْلَى وعقلُك عندها ... رجالٌ ، ولم تذهبْ لهم بعقولِ
يقولون : ودِّع عنك لَيْلَى وَلَا تَهِمْ ... بقاطعة الأقرانِ ذاتِ خليلِ
فما انتفعت نفسى بما أَمَرُوا بهِ ... ولا عُجْتُ مِنْ أقوالهمْ بِفَتيلِ
وقالوا : نأَتْ فاخترْ من الصَّبر والبكا ... فقلت : البكا أشفى إذن لغليلى
توليت محزوناً وقلت لصاحبِى : ... أقاتِلتى لَيْلَى بغير قَتِيلِ ؟ !
لقد أكثر الواشون فينا وفيكُمُ ... ومالَ بنا الواشون كلّ مميلِ
وما زلتُ من لَيْلَى لدُنْ طرَّ شارِبى ... إلى اليوم كالمُقصَى بكلّ سبيلِ

حب امرئ القيس :

من بين جبال اليمن السعيدة وقد اشتهرت بخصب أرضها ــ جبل يقال له : ضارج .. وهو جبل معروف يعلو سفحه نبات أخضر يسمى « العَرمَض » ويعلو الماء فيه مكان مرتفع يقال له « طامى » ويقال له أيضاً : ثَوْرُ الماء ، لتفجّر ثورانهِ من بين صخور وأحجارٍ .

وقد ذكر البكرىّ أنّ ركباً من اليمن خرجوا يريدون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ــ فأصابهم ظمأ شديد كاد يقطع أعناقهم ، فلما أتوا « ضارجاً » وهو ذلك الجبل الذى يفىء عليه الظّلّ وارفاً جميلًا من نبات العرمض ، بخُضرتِه اليانِعة ورائحته الطيِّبةِ ... ذكر أحدهم قول امرئ القيس :

ولما رأتْ أنّ الشريعة همُّها ... وأنّ البياضَ من فَرائضها دَامى
تيممّتِ العين[1] التى عند « ضارج » ... يفىء عليه الظلّ عَرْمَضُها طامِى[2]

وإنّه لخبر عجيب ــ سقناه ــ على أثر من آثار الطبيعة التى أبدع الله صنعها .

---

(١) إشارة إلى الماء . (٢) الطامى : المرتفع الذى يعلو نباته الماء .

ذو الرّمة وميّة :

اشتهر ذو الرّمّة بحبّ خرقاء ، ولُقِّبت : مَيَّة . وممّا يؤثر عنه أنّه يخاطب نفسه ـ في قصيدة طويلة كلّها غزَلٌ ونسيبٌ فيقول :

إذا قلت ودّع وصل خرقاء واجتنب ... زيارتَها تَخلُقْ حبال الوسائِلِ
وأهلةِ وُدٍّ قد تَبَرَّيتُ وُدَّهُمْ ... وأبلَيْتُهم في الحمد جَهدى ونائلى

***

توبة وليلى الأخيلية :

أخبرنا أبو الحسن على بن سليمان ، وأبو إسحاق الزجّاج ، عن أبي العباس محمد ابن يزيد المبرِّد . قال ثبتت الروايات والأخبار أنّ « ليلى الأخيلية[1] » لم تكن امرأة توبة بن الحميّر ولا أخته ، ولا كان بينهما نسب شابك ، إلّا أنهما كانا جميعاً من بنى عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . وكان يحبها وتحبّه ، فأقاما على حبّ عفيفٍ دهراً ، وتلك هى السُّنَّةُ في عشاق بنى عذرة وغيرهم ، إلى أن قتل توبة . وكان سبب قتله أنه كان يطلبه بنو عوف ـ فأحسُّوا قدومَهُ من سفره ، فأتوه طروقاً ، وبينه وبين الحىّ مسيرة ليلة ، ومعه أخوه « عبد الله ، ومولاه قابض » فهربا وأسلماه ، ففي ذلك تقول « ليلى » :

دعَا قابضاً والمرهفاتُ تنوشُهُ ... فَقُبِّحْتَ مدعوًّا ، ولُبِّيت داعياً
فيالَيْتَ عبد اللهِ حلَّ مكانَهُ ... فأَوْدَى ، ولم أسمع لتوْبَةَ ناعِياَ

ومن جيّد ما ترثيه به قولها :

فأقسمت ، أبكى بعد توْبَةَ هَالِـكاً ... وأَحفِل مَنْ دارتْ عليه الدَّوائر
لَعمْرُكَ ما بالموت عَارٌ علَى الفَتَى ... إذا لم تصبه فى الحياة المَعَايِرُ
فلا الحىُّ ممّا يُحدث الدهر سالمٌ ... ولا الميتُ إن لم يصبر الحىّ ناشرُ

---

(١) فى أمالى أبي القاسم الزجاجى ص ٥٠ .

وكلُّ شبابٍ أو جديدٍ إلى بلَى ... وكلّ امرئٍ يوماً إلى الله صائرُ
فلا يُبْعِدنْكَ اللهُ تَوْبَةَ هَالِكاً ... أخا الحرب إذ دارت عليه الدوائرُ
وأقسمت لاأنفكُّ أبكيكَ مادعَتْ ... على غصن ورقاءُ أو طار طائرُ
قتيلُ بنى عَوْفٍ فيالهفَتَا له ... وما كنت إياهم عليه أحاذرُ

قال أبو القاسم رحمه الله : قولها : « أقسمت أبكى بعد توبة هالكاً » أى : لا أبكى بعد توبة هالكاً . والعرب تضمر « لا » فى القسم مع المعنى ـ لأنّ الفرق بيَنهُ وبين الموجب قد وقع بلزوم الموجب اللام والنون ـ كقولك والله لأخرجن، وقال الله عز وجل : «تالله تفتأ تذكر يوسف » أى : لا تفتأ تذكر يوسف . وقولها : « ولا الميتُ إن لم يصبرْ الحيُّ ناشر » يقال: نشر الله الموتى فنشروا ـ أى . أحياهم فحيوا .

قال الشاعر :

لو أسندتْ ميْتاً إلى نحرها ... عاشَ ولمْ ينقل إلى القابرِ
حتى يقول الناس ممّا رأوْا ... يا عجباً للميِّت النَاشرِ

ومن أغرب ما رُوِىَ فى (الصَّدَى) ما رواه أبو على من أن ليْلَى الأخيلية مرّت مع زوجها فى بعض نجعهم بالموضع الذى فيه قبر توبة ، وكانت متزوّجة فى بنى الألكح بن عبادة ابن عقيل . فقال لها زوجها : لابد أن أعرِّجَ بكِ إلى قبر توبة كى تسلِّمى عليه حتى أرى هل يجيب صداهُ كما زَعَم ـ حيث يقول :

ولو أن ليلى الأخيلِيَّة سلَّمَتْ ... علىّ ، ودونى جندلٌ وصفائِحُ
لسلَّمْتُ تسليم البشاشة . . أو زقَا ... إليها صدى من جانبِ القبر صائحُ

فقالت له : وما تريد من رمّة وأحجار ؟ ! فقال : لا بُدَّ من ذلك، فعدل بها عن الطريق إلى القَبْرِ ، وذلك فى يوم قائظٍ ، فلمَّا دنت راحلتها من القبر ورفعت صوتها بالسلام عليه ، إذا بطائر قد استظلّ بحجارة القبر من فيح الهاجرة ، فطار ، فنفرت راحلتها ووقعت ، فماتت !

وفى هذا الخبر ما يحقق ويصدق أن : البلاء موكّلٌ بالمنطق . كما يروى أن أحد المولعين بالخمر قال :

إذا مِتُّ فادفِـنّى إلى جنب كرمةٍ تُرَوِّى عظامِى فى الممات عروقها
ولا تدفنونى فى الفلاةِ فإننى أخَاف إذا ما مت ألّا أذوقها

وبعد حين من ذلك ، مات ذلك المولع بالخمر ، وزار قبره ذا كرٌ له فإذا هو عليه عريش ، فتعجب من ذلك !

عبيد الله بن طاهر وجاريته :

أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن السرى الزجاج ـ قال : أخبرنا أبو العباس المبرّد قال : دخلت على عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ـ وقد فصد فظننت أن ذلك لعلة، فأكثرت له من الدعاء . فقال : خفِّض عليك أباالعباس، فليس ذلك لعلة ، وانظر ماتحت البساط، فنظرت فإذا رقعة فيها :

حلف الظريف بقطعه يَدَهُ إن مسَّ من يهواه بالألم
حتّى إذا ضاق الفضاء به جَعَل الفَصادَ تَحِلَّةَ القَسَمِ

قلت: حَسَنٌ أيها الأميرُ. فماسببه؟ قال مددت البارحة يدى إلى إحدى الجوارى بالضَّرْب فألِمْتُ لما نالها من الألم ، فحلفت بقطع يدى ، فأُفتيت بالفَصْد ، ففعلت . وأَنشدنا الأَخفش لأبى نواس :

ما بالُ قلبك لا يقرُّ خُفُوقَا وأراك ترعى النَّجْمَ والعيُّوقَا
وجفون عينكِ قد نثرن من البكا فوق المدامع لؤلؤا وعقيقَا
لو لم يكن إنسان عينكِ سابحاً فى بحر دمعتهِ لمات غريقَا

بحر هوى ليس له شطّ :

أخبرنا أبو بكر محمد بن دُرَيد قال : أخبرنا أبو حاتم عن الأصمعى قال :

دخل بعض الشعراء على يحيى بن خالد البرمكىّ ، وبين يديه جارية يقال لها : خنساء ، وكانت شاعرة ظريفة ، فقال له : اعبث بها فأنشأ يقول :

خنساء خنساء وحتّى متَى ... يرتفِعُ النـــاسُ وتَنْحَطُّ
قد صرت نضوا فوق فرش الهوى ... كأنّنى من دقتى خيْطُ

فقالت خنساء :

وكيفَ منجاى وقد حلّ بى ... بَحْرُ هوًى ليس لهُ شَطّ
يدركُكَ الوصلُ فتنجُو به ... أو يقع الهجر فتنحَطّ

حب زينب بنت إسحاق النصرانى :

من فوائد الرَّضىِّ الشَّاطبىِّ المذكور ، ما ذكره أبو حيّان فى الحبّ قال : وهو من غريب ماأنشدناالإمام اللغوىُّ رضىّ الدِّين أبوعبد الله محمدبن علىّ بن يوسف الأنصارى الشاطبى لزينب بنت إسحاق النَّصرانىّ :

عدِىٌّ وتيمٌ لا أُحاولُ ذكرهم ... بسوء ولكنّى محبٌّ لهاشِمِ
وما يعترينى فى علىٍّ ورهطِهِ ... إذا ذكروا فى اللهِ لومة لائِم
يقولونَ : ما بال النصارى تُحبهُمْ ... وأهل النُّهَى من أعرب وأعاجمِ
فقلت لهم : إنِّى لأحسبُ حُبَّهُم ... سرى فى قلوبِ الخلق حتّى البهائمِ

* * *

التائب من الحب :

قال الحجازى[١] : قال عبد الوارث : كان فيمن يقرأ علىّ مملوكٌ مليحُ الوجه ، رضىُّ الخُلق ، حاد الذكاء . فَخَلَوْتُ به يوماً ، وداعبتُه بعبارات تُنْبِيُ عن شدّة شغفى به ، فقال لى: حذار أن تعود لمثل هذا الكلام ، فللجُدْران آذانٌ ، وربَّ عثرةِ لسانٍ ، أودت بإنسانٍ . . . ولكن إذا لم تستطع الكتمان ، فاكتب لى ما تحبّ أن تقوله فى ورقةٍ فتكون فى أمانٍ واطمئنان .

قال : فلما سمعت ذلك منه تمكّن الطمع منى ، وكتبت فى ورقة :

يا مَنْ لَهُ حُسْنٌ يَفُوقُ به الْورَى — صِلْ هائماً قد ظلَّ فيك مُحَيَّراً
وامْنُنْ علىّ بساعةٍ فى خلوةٍ — إن كنْتَ تطمعُ فى الهوى أن تُؤْجَرَا

وكتبت تحت البيتين كلاماً كثيراً فى هذا المعنى ، ثمّ دفعت إليه الورقة خِلْسَةً .

فلمّا حصلت الورقةُ عنده ـ كتب إلىَّ فى غيرها : إنكَ لَتَعْلَمُ أنّى من بيت عريق فى التّقْوَى . وسأُبقى عندى خطّك شاهداً على ما فرَطَ منْك ، ولَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأُطْلِعَنَّ عليها أبى وغيره . فتصيبك فضيحة الأبد .

أمّا إن انتهيت فلن أخبر بها أحداً أبداً .

فلمّا وقفت على خطه ، علمتُ قدر ما وقعتُ فيه ، وجعلتُ أرغبُ إليه فى أن يرُدَّ الرُّقْعة إلىَّ ، فأبى وقال :

هى عندى رهن على وفائك بألّا ترجع إلى التكلّم فى ذلك الشأن .

ولم يسعنى إلّا أن امتثلت ، لأنّى رأيت صيانتى وناموسى فى يده ، وتبت عن مثل هذه المداعبات .

---

(١) فى نفح الطيب ج ٢ ص ٩٥٢ .

الحب والجمال

حب امتداح النساء :

كان أبوبكر محمد بن العبّاس الخوارِزْمىُّ ـ من الشعراء المطبوعين على حبّ امتداح من يراه من النساء ، عن براءةٍ فى القصد ، تَحمِلُ فى طيّاتها روحاً لا تؤمن إلّا بالواقع ، مهما يُكلِّفه ما قصد إليه ، دون أن يقيم لذلك وزناً فى استجلاب مرضاةِ أحدٍ ، ومهما يعترضْه من خصوم أو لائمين ، فمن وسائط قلائده:

مضَت الشَّبيبةُ والحبيبةُ فالتقى | دمْعانِ فى الأجْفانِ يَزْدحمانِ
ما أنصفتْنى الحادثات رَميْنَنِى | بمودَّعَيْن ، ولَيْسَ لِى قلبانِ

وقوله من أخرى :

قلتُ للعيْنِ حين شامَتْ جَمالًا | من بروق كواذب الإيماضِ
لا يَغُرَّنْكِ هذه الأوْجُهُ الغُرُّ | فيارُبَّ حَيَّةٍ فى رِياضِ

وقوله من أخرى أيضاً :

خليلىَّ عهدى باللَّيالى صوافياَ | فما بالُها أُبْدِلْنَ جِياً بصادَها ؟
ولا تحسِبَا عيْشى علىَّ فإنَّنى | أُؤرِّخُ يومَ الموْتِ يومَ افتقادها
ولستُ أُحبُّ الضَّوءَ إلّا لِوَجْهِها | ولا الْبَدْرَ إلّا طالعاً من بلادِهاَ
ولو أنَّنى أنصفْتها ورَعَيْتُها | لسَارَ فُؤادِى فى طريق فؤادِها
خليلىَّ هلْ أبصرتُما مِثْلَ أدْمُعِى | نَفَدْتُ وحقِّ اللهِ قَبْلَ نَفادِها

* * *

وقال بعضُ الحكماء : ما آنسَ الإنسانَ ، ولا عمَّر المكانَ ، ولاسلَّى الأحزانَ ، ولا أعانَ على الزَّمان ، مثلُ البيضِ العوان .

وفى كتاب مُسْلِمٍ ، أن رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ قال : « الدنيا متاع ، وخيرُ متاعِ الدُّنيا المرأةُ الصَّالِحَةُ » .

وفى كتاب « الأربعين » للثقفى عن أبى هُرَيْرة ـ رضى الله عنه ـ قال : سُئل النبىُّ ـ صلّى الله عليه وسلّم : أىُّ النساء خيرٌ ؟ فقال : التى تسرُّهُ إذا نَظَر ، ولا تَعْصِيه إذا أمر ، ولا تخالفُه فيما يكره من نفسها ، ولا مالِه .

وفى « الشهاب » : « النَّظرُ إلى المرأة الحسناء يزيدُ فى البصر » ولله درُّ أبى نواس إذ يقول :

يَزيدُكَ وجهُه حُسْناً إذا ما زِدْتَهُ نَظَرَا

وقال شاعر آخر :

ويَقْبُحُ من سِوَاكَ الفِعْلُ عندى فَتَفْعَلُهُ فيَحْسُنُ مِنْكَ ذَاكا

وقال غيره :

وإذا الحبيبُ أتَى بذنبٍ واحدٍ جاءتْ محاسِنُه بألْفِ شَفِيعِ

أعرابى يصف امرأة :

قال العُتْبىُّ(١) : سمعتُ أعرابيًّا يصف امرأة فقال : بيضاء جَعْدةٌ ، لا يمسُّ الثوبُ منها إلّا مُشاشةَ كَتِفَيْهَا ، وحَلَمَةَ ثَدْيَيْهَا ، ورضْفَىْ رُكبَتَيْها ، وجانِبِى أَلْيَتَيْها ، وأنشد :

أبتِ الرَّوادِفُ والثُّدِىُّ لقُمْصِها مَسَّ البُطونِ وأن تَمَسَّ ظُهُورَا

وإذا الرِّيَاحُ مع العَشِىِّ تناوَحَتْ نَبَّهْنَ حاسدةً ، وهِجْنَ غَيُورَا

وقال آخرُ : لَيْتَ فُلانةَ حَظِّى من أَمَلِى ، ولَرُبَّ يومٍ سرْتُه إليها حتّى قبضَ اللَّيلُ بصرى دونَها ، وإنَّ مِن كلام النّساء مايقوم مقامَ الماء فيَشْفِى الظّمْاَء .

---

(١) فى العقد الفريد ج ٢ ص ١١٥ .

وذكر أعرابيٌّ امرأةً فقال : تلكَ شمسٌ باهتْ بها الأرضُ شَمْسَ سَمَائِها ، وليْسَ لى شفيعٌ فى اقتضائها ، وإنّ نفسى لـكتُومٌ لِدائها ، ولـكنّها تفيض عند امتلائها . أخذ هذا المعنى حبيب فقال :

ويا شمْسُ أرْضِيها التى تمّ نُورُها فباهتْ بها الأرضُون شَمْسَ سَمَائِهَا
شكوْتُ وما الشّـكْوَى لِمثْلِىَ عادةٌ ولـكنْ تَفيضُ النّفْسُ عند امْتلائِهَا

وقيل لأعرابى : ما بالُ الحبِّ اليوْمَ علَى غير ما كان عليـه قبل اليوم ؟ قال : نعمْ ، كان الحبُّ فى القلب ، فانتقل إلى المَعِدَةِ ، إنْ أَطْعَمَتْهُ شيئاً أحبّها ، وإلّا فلا . كان الرّجلُ إذا أحبَّ امرأةً ، ظلَّ حَوْلا يطوفُ بِدارِها ويفرح إن رأى من رآها ، وإن ظفِرَ منهـا بمجلِسٍ تَشاكَيَا وتناشَدا الأشعارَ ، وإنّه اليومَ يشيرُ إليها وتشير إليْه ، ويَعِدُها وتَعِدُه ، فإذا اجتمعا لم يشكوَا حبًّا ولم يُنْشِدَا شِعْرًا .

وقال أعرابىّ يشكو لوعةَ الحبِّ وكِتْمانَه وصبْرَهُ على من يُحبُّه ولا يطيق سُلْوَانَه :

شكوْتُ فقالتْ : كلُّ هذا تبرّماً بِحُبِّى ، أراحَ اللهُ قلبكَ من حُبِّى
فلما كتمتُ الحبَّ قالتْ : لَشَدَّ ما صَبَرْتَ ، ومَا هَذا بفعْل شَجِى القلْبِ
وأدنُو فتُقْصِينى فأبعِـدُ طالباً رضاها ، فتَعْتَدُّ التَّباعُدَ من ذَنبِى
فشكوایَ تُؤْذِيها ، وصبْرى يَسُوءها وتجزعُ من بُعْدِى ، وتَنْفر من قُرْبِى
فياقوْمِ هلْ مِنْ حيلةٍ تَعْلمونَها ؟ أشِيرُوابها،واسْتَوْجِبُواالشّكْرَمِنْ رَبِّى

***

الوصف بعد المشاهدة[1] :

اشتهر القاضى أبو الحسن على بن عبـد العزيز الجرجانى بروائع الـكَلِم فى نَظْم الشعر ، واتّخذ لنفسه طرائقَ سهلةً ، غاية فى البساطة، فـكان يسمُو بوصف ماأحسّ به، واستساغه، ويكسوه من رقة المعانى أسلوباً جميلًا يتربّبُه إلى الفهم ، حتى يتذوّق أنغامَه المستمعُ شراباً

(١) فى خاص الخاص للثعالبى .

عذباً سلسبيلًا ، ويملأ به المحزونُ صدْرَه نسيماً صافيا عَليلًا ؛ ومن بدائع طُرَفِهِ قولُه :

أفدى الّذى قالَ وفى كفِّه مثلُ الَّذى أشربُ مِنْ فِيهِ
الوردُ : قد أينعَ فى وَجْنتى قلتُ : فَمِى باللَّثْمِ يَجْنِيهِ

وقولُه ، ولم أَسْمَعْ فى التعريض بالالتحاء أحْسَنَ منه :

قد برَّح الحب بمُشْتَاقِكْ فَأوْلِهِ أحْسَنَ أخْلَاقِكْ
لا تَجْفُهُ وارْعَ له حَقَّهُ فإنه آخِرُ عُشَّاقِكْ

وقولُه فى فصْد الحبيب :

ياليْتَ عيْنى تَحَمَّلَتْ ألمَكْ وليْتَ نَفْسِى تقسَّمتْ سقَمَكْ
ولَيْتَ كفَّ الطّبيبِ إذْ فَصَدَتْ عِرْقَكَ أجرتْ مِنْ نَاظِرىَّ دَمَكْ
أعَرْتَه صِبْغَ وَجْنَتَيْكَ كمَا تُعيرهُ إن لَثمْتَ مَنْ لَثَمَكْ
طَرْفُكَ أمْضَى مِنْ حَدِّ مِبْضَعِهِ فالْحَظْ بِهِ العِرْقَ واغْتَنِمْ ألَمَكْ

وقولُه من قصيدة أولها :

من أيْنَ لِلْعارض السَّارِى تلَهُّبُهُ وكيْفَ طَبَّق وَجْهَ الأرْض صَيِّبُهُ
هل ِ استَعَانَ جفونى فهى تُنجِدُهُ أم ِ استعارَ فؤادى فَهْوَ يُلْهِبُهُ

ومنها :

بجانبِ الكَرْمِ من بَغْدادَ لِى قمرٌ لوْلَا التَّجمُّل ما أنْفكُّ أندُبُهُ
وصاحبٌ ماصَحِبْتُ الدَّهرَ مُذْ بَعُدَتْ ديارُهُ ، وأرانى لَسْتُ أصْحَبُهُ
فى كلّ يومٍ لِعَيْنى ما يُؤَرِّقُها مِن ذكْرِهِ وَلِقَلْبِى مايُعَذّبُهُ
وما البِعادُ دهانِى ، بَلْ خَلَائقُه ولا الفِرَاقُ شَجَانِى ، بلْ تجَنُّبُهُ

وله أيضاً :

وقالوا اضْطَرِبْ فى الأرض فالرِّزْقُ أوْسَعُ فقلتُ : ولكِنْ مطلَبُ الرِّزْقِ ضَيِّقُ
إذا لم يكُنْ فى الأرض حُرٌّ يُعِينُنى ولم يَكُ لى كَسْبٌ ، فمِنْ أيْنَ أرْزَقُ ؟

أسْنَانُ النساء(١) :

قال أبو الحسن الأخفشُ : من أحْسَنِ ما قيل فى ترتيب أسنان النساء ، وإن كان شعراً ضعيفاً ، قَوْلُ ضَمْرَةَ للنُّعْمَان بن المنذر ، وقد سأله وصف النساء :

متى تلقَ بِنْتَ «العشْرِ» قَدْ نُصَّ ثَدْيُهَا ... كَلُؤْلُؤَةِ الْغَوَّاصِ يَهْتَزُّ جِيدُها
تَجِدْ لَذَّةً مِنْهَا لِخفَّةِ رُوحِها ... وغُرَّتِهَا ، والحُسْنُ بَعْدُ يَزِيدُها
وصاحِبَة « العِشْرِيَن » : لا شىء مثلُها ... فَتِلْكَ الَّتى تَلْهُو بِهَا وَتُرِيدُهَا
وبنتُ « الثَّلاثين » : الشِّفاء حَدِيثُها ... هى العَيْشُ ما رقَّتْ ولا دَقَّ عُودُهَا
وإن تلقَ بنتَ « الأرْبَعينَ » فغِبْطَةٌ ... وخَيْرُ النِّسَاء : أَوَدُّهَا وَوَلُودُهَا
وصاحبةُ « الخمسينَ » : فيها بَقِيَّةٌ ... منَ الحُسْنِ واللَّذَّات،صُلْبٌ عَمودُهَا
وصاحبة « السِّتينَ » لا خَيْرَ عِنْدَها ... وفيها ضَيَاعٌ ، لا حَرِيص يُرِيدُهَا
وصاحبة « السَّبْعينَ » إنْ تُلْفِ مُعْرِساً ... عَلَيْهَا فَتِلْكُمْ خِزْيَةٌ يَسْتَفِيدُها
وذات « الثمانينَ » الّتى قَدْ تَجَلَّتْ ... من الكِبَر الفانى وقدَّ وَرِيدُها
وصاحبة « التِّسْعِيَن » يَرْعَشُ رأسُهَا ... وباللَّيْل مِقْلَاقٌ قَليلٌ هُجُودُها
ومَنْ طَالع الأُخْرَى ، فَقَد ضَلَّ عَقْلُهُ ... وتحسِبُ أنَّ النَّاسَ طُرًّا عبيدُهَا

***

دارة يلعب فيها البدر(٢) :

عُرِف الشيخ سعيد السمّان الدمشقى ، بحبّ الجمال ، وشغف بتصوير ما يعْشَقُ تصويرا حساساً ، ومن قوله مضمنا مصراعه الأخير :

يارُبَّ ظَبْى كالمدام حَدِيثُهُ ... فَيُسِيغهُ سَمْعِى وعَقْلى يَطْرَبُ
قَدْ خلتْهُ شَمْسَ النَّهار بكفّه ... مرآةُ حُسْن لَوْنُهَا يَتَذَهَّبُ
والوجْهُ فيها لائح فكأنَّها ... هى دارةٌ والبَدْرُ فيها يَلْعَبُ

(١) فى أمالى أبي القاسم الزجاجى (٢) فى سلك الدرر ج ١ ص ٢٠٨ .

وقال العالم أحمد المتيني ، مضمنا نفس المصراع :

عاتبْته وكأنّه من لُطفه ... راحٌ تكاد لها اللواحظُ تشْرَبُ
بالعقل والشطرنج يلعب وهْوَفى ... فُسطاط حُسْن للمسرّة يجبُ
يحكى الزمرّد خضرة فكأنما ... هىَ دارةٌ والبدْرُ فيهَا يَلْعَبُ

المرأة والطيب (١) :

يَحْمِلْنَ أتْرُجّة نَضْخُ العَبير بها ... كأن تَطْيابها فى الأنفِ مَشْمُومُ

الأتْرُجَّةُ هنا : كنايةٌ عن المرأة شبَّهها بها فى طيب رائحتها ، ومافى لونها من الصُّفرة وكانت العربُ تكره بياض اللّون المُفْرطَ ، ولذلك كانوا يعيبون قول الأعشى :

ومن كلّ بيضاء رُعْبوبَةٍ ... لَهَا بَشَرٌ ناصعٌ كاللّبَنْ

وكانوا يستحسنون قول ذى الرمة :

صفراء فى نَعج بَيضَاء فى دَعَج ... كأنّها فضة قَد مَسَّها ذَهَب

نتف الوجه بالخيط (٢) :

قال الناظمُ : لما استقرّ بنا المقام ، بين إقدام وإحجام ، ودفعنا الحنين إلى ما يُحْمَدُ عقباه ، قرأنا على أبى بكر بن دُرَيْدٍ رحمهُ الله :

فلما مضى شهرٌ وعَشْرٌ لعيرهَا ... وقالو : يجىء الآن قد حَانَ حينها
أمرّت من الكتان خَيْطاً وأرْسَلت ... جَرِيًّا إلى أُخْرى قَريباً تُعينُها

هذه امرأة تنتظر عيراً تَقْدُمُ وزوجُها فيها ، فأرادت أن تنتف وجهاَ بالخيط وتهيَّأ له . والجرِيُّ: الرّسُولُ . يقول : أرسلتْه إلى جارةٍ لها تستعين بها فى نتف وجهها بالخيط للتزّيّن . وبعد هذا سار مسترسلًا معبّراً عن الخيط بالسّلك، لأنّه أقرب إلى المعنى ، وأسلس فى المبنى ،

---

(١) فى الاقتضاب ص ٣٨٢ .
(٢) فى أمالى القالى ج ١ ص ١٩٨ .

فقال :

فمازال يَجْرِى السِّلْكُ فى حرِّ وَجهِهاَ وجبهتِها حتّى ثَنَتْهُ قُرونُها

ثنته : كفتّه . وقرونها : ذوائبها . ومنه قول مجنون لَيْلَى لزوجها :

بربِّك هل ضَمَمْتَ إليك لَيْلَى قُبَيْلَ الصُّبح أو قَبَّلْتَ فَاها ؟

وَهلْ رفَّتْ علَيْكَ قرونُ لَيْلَى رَفِيفَ الأقحوانة فى شذاها

تشبيه المرأة ببدر السماء :

بَدَتْ لميسُ كأنها بَدْرُ السَّمَاءِ إذا تبَدَّى

قوله : كأنها بدر السماء ، فى موضع الحال للمرأة أى : بَدَتْ مشبهة البدْرَ ، وإذا تبدَّى ظرفٌ لما دلّ عليه كأن منْ مَعْنى الفعل . أى : بَرَزَتْ هذه المرأةُ كاشفةً عن وَجْهها ، كأنها قد أرسلَتْ نقَابهاَ. ودَلّ على هذا بقوله : كأنها بدرُ السماءِ إذا تبدَّى . وإنما فعلَت ذلك إمَّا للتشبيه بالإماء حتّى تأمنَ السِّبَاءَ ، أو لما تَدَاخلها من الرعب . ومثلُه قول الشاعر :

ونِسْوَتكُمْ فى الرَّوْعِ بادٍ وجُوهُهاَ يُخَلْنَ إماءً ، والإماء حرائر

***

لقاء فتى جميل الوجه فى الجنّة :

ذكر المبرِّد عن أبى كامل ، عن إسحاق بن إبراهيم ، عن رجاء بن عمرو النخعى قال : كان بالكوفة فتى جميل الوجه ، شديد التعبّد والاجتهاد . فنزل فى جوار قوم من النخع ، فنظر إلى جارية منهنّ جميلة، فهويها وهام بها عقله . ونزل بالجارية ما نزل به، فأرسل يخطبها من أبيها، فأخبره أبوها أنها مسمّاة لابن عمّ لها . فلمّا اشتدَّ عليهما مايقاسيانه من ألم الهوى، أرسلت إليه الجارية ، قد بلغنى شدّة محبّتك لى ، وقد اشتدّ بلائى بك ، فإن شئت زرتُك ، وإن شئت سهلتُ لك أن تأتى إلى منزلى . فقال للرسول : ولا واحدة من هاتين الخَلتين « إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم » أخاف ناراً لا يخبو سعيرها، ولا يخمد لهيبها.

فلمّا أبلغها الرسول قوله ، قالت : وأراه مع هذا يخاف الله . والله ما أحد أحق بهذا من أحد ، وإنّ العباد فيه لمشتركون . ثمّ انخلعت من الدنيا ، وألقت علائقها خلف ظهرها، وجعلت تتعبّد . وهى مع ذلك تذوب وتنحل حبًّا للفتى وشوقاً إليه حتّى ماتت من ذلك . فكان الفتى يأتى قبرها فيبكى عنده ، ويدعو لها . فغلبته عينه ذات يوم على قبرها ، فرآها فى منامه فى أحسن منظر . فقال لها : كيف أنت وما لقيت ؟ قالت :

نِعْمَ المحبّةُ يا سُؤلى محبّتُكُمْ   حبٌّ يقودُ إلى خير وإحسان

فقال : على ذلك إلام صرت ؟ فقالت :

إلى نعيمٍ وعيشٍ لا زوال له   فِى جَنَّةِ الخُلْدِ مُلْكٌ لَيْسَ بالْفَانِى

فقال لها: اذكرينى هناك، فإنّى لست أنساك. فقالت: ولا أنا والله أنساك، ولقد سألت مولاى ومولاك أن يجمع بيننا ، فأعنى على ذلك بالاجتهاد . فقال لها : متى أراك ؟ فقالت : ستأتينا عن قريب فترانا . فلم يعش الفتى بعد الرؤيا إلّا سبع ليال حتى مات ، رحمه الله .

وذكر الزبير بن بكار، أن عبد الرحمن بن أبى عمار نزل مكة ، وكان من عباد أهلها ، فسمِّى القسّ من عبادته . فمرّ يوماً بجارية تغنى ، فوقف فسمع غناءها فرآه مولاها . فأمر أن يدخل عليها فأبى . فقال له : فاقعد فى مكان تسمع غناءها ولا تراها . ففعل فأعجبته . فقال له مولاها : هل لك أن أحوّلها إليك ؟ فامتنع بعض الامتناع ، ثمّ أجابه إلى ذلك . فنظر إليها فأعجبته ، فشغف بها وشغفت به .

وعلم بذلك أهل مكة . فقالت له ذات يوم : أنا والله أحبّك ، فقال : وأنا والله أحبّ ذلك . قالت : فما يمنعك ؟ فإنّ الموضع خال ! قال لها : ويحك ، إنّى سمعت الله يقول : « الأخلّاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدوّ إلّا المتّقين » . فأنا والله أكره أن يكون صلة ما بينى وبينك فى الدنيا عداوة يوم القيامة . ثمّ نهض وعيناه تذرفان بالدموع من حبها !

***

تكنى المرأة بالشاة أو البيضة[1] :

خرج الرشيدُ فى بعض أسفاره . فأخرج معه أخته عُلَيَّة ، وكان قد بلغه أنّها تُعْجَب بغلام له اسمه « رَشَا » فأبْعَده ، وقيل قَتَلهُ . ثمّ إنهـــا علقت من بعده غلاماً آخر اسمُه « طَلّ » فكانت تكثِرُ من ذكرها له . فقال لها الرشيدُ : والله لئن ذكرتهِ لأَقْتُلَنَّك ، فدخل عليها يوماً على حين غَفْلةٍ وهى تقرأ قَوْلَهُ تعالى : « فإنْ لَمْ يُصِبْها وَابِلٌ فَطَلٌّ » . فلما شعرت به قرأت أوّل الآية « فإن لم يُصِبْهَا وابلٌ » ثُمَّ أمْسَكَتْ حتّى لا تذكر اسم (طَلّ) وأكملت قائلة : « فإنْ لَمْ يُصِبْهَا وابل . . . فالذى نهى عنـــه أمير المؤمنين » . فابتسم الرشيدُ وقال لها : « ولا هذا أيضاً يا أُخَيَّة » .

وقيل إنّه أخرج ذلك الغلام من قصره ، فطار قلبُها حزْناً لفراقهِ ، وقالت :

أيَا سَرْحَةَ البُسْتَانِ طَالَ تَشَوُّقِي ... فَهلْ لِي إلى ظِلٍّ إليكِ سَبيلُ ؟
متى يشتفِي من ليْسَ يُرْجَى خُروجُه ... ولَيْسَ لِمَنْ يَهْوَى إليْـهِ دُخُولُ

فانظر كيف وَرَّتْ « بِظِلٍّ عن طَلٍّ » بعد أن قدّمت ذكر السَّرحة ـ وهى الشجرة ـ لتتمكن من لفظة ظلٍ فتبعدَ التُّهْمَة . وكثيراً ما تذكر العرب لفظة السَّرْحَة أو الشاة أو البيضة أو القلوص ، وهى الشابة من الإبل ، وتكنّى بذلك عن المرأة.

وكانت أم حكيم من أجمل نساء وقتها ومن أشجع النّاس وأحسنِهم بديهةً ، خطبها جماعةٌ من أشراف الخوارج فرَدَّتْهُم ، وكانت مع أمير الخوارج قَطَرِىِّ بن الفجاءة ، فى جُنْد (الأبَاضِيَّة) فكانت ترتجزُ فى تلك الحروب وتقول :

أحملُ رأساً قد سئمتُ حَمْلَهْ ... وقد مَلَلْتُ دَهْنَهُ وغَسْلَهْ
أَلَا فتًى يحمِلُ عـنِّى ثِقْلَهْ ؟

والخوارجُ يَفدُونها بالآباء والأمهات ، وكان « قطرىٌّ » يُشَبِّب بها . وفيها يقول فى وَقعة دُولاب ، وهو مِن رقيق الغزَل :

---

(١) فى سناء المهتدى ص ١٩٣ .

لَعَمْرُكَ إنّى فى الحيـاةِ لزَاهدُ وفى العَيْشِ ما لَمْ أَلْقَ « أمَّ حكيمِ »
من الخفِرات البيض لم يُرَ مثلُهـا شفاءٌ لذى بثٍّ ولا لسقيمِ
لَعَمْرُكَ إنى يوم أَلْطُمُ وَجْهَها على نائبـات الدَّهر جِدُّ لَئيمِ
ولو شاهدتنى يوم دولابَ أبصرت طِعانَ فتًى فى الحربِ غيرَ ذَميمِ
غداةَ طفَتْ علْماءَ بكْرِ بْنِ وائلٍ وعُجْنَا صُدور الخيـلِ نحو تميمِ
فلمْ أرَ يوماً كانَ أكثرَ مقعصاً يَمُجُّ دماً من فَايظٍ وكَلِيمِ
وضاربة حدًّا كريمًا على فتًى أَغَرَّ نجيبِ الأُمَّهاتِ ، كريمِ
أُصيب بدولابٍ ولم تَكُ مَوْطِناً لَهُ أَرْضُ دولابٍ ، ودِيرُ حَميمِ
فلو شاهدتنى يوم ذاكَ وخيلُنـا تُبيحُ من الـكُفَّارِ كلَّ حَريمِ
رأتْ فِتْيَةً باعُوا الإلَهَ نُفوسَهُمْ بجَنَّةِ عَدْنٍ عِنْـدَهُ وَنَعيمِ

* * *

أسماء النّساء(١) :

ولابن الوردى فى « أسما » :

أرى أسما إذا غضبت وصدّت أكاد من الغرام أموت سقماَ
وإن هى واصلتنى طاب قلبى كأنى بتُّ أوقيـــه بأسماَ

وفيها أيضاً :

قد لامنى فى حبّ أسما عاذل أجرى مدامع مقلتى بدما
فاعجب لمجرى مدامع أوقفتها من فعل ذاك الحرف فى أسما

وفى آمنة :

قد وعدتنى بالوفا آمنــه وقد غدت بالرِّضا آمنــه
كيف يخاف القلب من بينها ومهجتى أضحت بها آمنــه

(١) الجزء رقم ٩٤٨ شعر تيمور .

وفيها أيضاً :

هيفاء كالغصن الرّطيب قوامها محبّتها فى لجّة القلب كامنه
تهدّدنى بالهجر فى الوصل عامدًا فأصبح منها خائفاً وهى آمنه

وللأزهرى فى أنَس :

آنست بالوصل مذ جاءت به أنس يوماً وعاذلها قد باء بالخرس
عن مالك قد روى نيران وجنتها لـكن حديث اللقا أرويه عن أنس

وله فى حليمة :

قالوا حليمة صبحت بفرط وجدى عليمه
لمَ لاترقّ لحالى فى الحبّ وهى حليمه

وفى خديجة :

خديجة قد سبتنى بنـــار خدٍّ وهيجه
وكانت الروح تقسو والآن روحى خديجه

وفيها أيضاً :

تعشّق فى الهوى قلبى فتاةً تزين البدر ذو حسن بهيجه
أموت بحبّها شوقاً وأحيـــا إذا ناديت ياستى خديجـــه

وفى زينب :

وعرّض بذكرى حين تسمع زينب وقل ليس يخلو ساعة منك آله
عساها إذا ما مرّ ذكرى بسمعها تقول فلان عندكم كيف حاله ؟

وفى سلمى :

لسلمى من لواحظها سهام لها فى القلب فتك أىّ فتك
إذا رامت تشكّ به فؤادًا يموت المستهام بغـــير شكٍّ

وفى عائشة :

أَيا دَهْرُ خبِّرنى بِحقِّكَ واشْفِنى فسهام فكرى فى أمورى طايِشهْ
أَيحلّ أَنِّى فى المحبَّة ميِّتٌ وحبيبتى من بعد موتى عايِشهْ

وفيها أيضاً :

شُغل القلب بقـــدٍّ أهيفٍ   تركت منـــه العوالى طايِشهْ
أَنتَ دعنى أن أَمُتْ فى حبِّها   ثمّ دعها بعد عينى عايِشهْ

وفى فاطمة :

فاطمةُ مذ كنتُ طفلًا بها   متُّ جوًى وهى بذا عالمه
كم أرضعتنى وصلها بالهنا   ثم انْثَنَتْ لى بأنّها فاطمه

وفيها أيضاً :

هيفاء كالغصن لهـــا قامةٌ   عادلةٌ مع أنّهـــا ظالمه
قد أرضعت طفل الهوى مرّةً   بوصلها ثمّ أُنثنت فاطمه

وفيها أيضاً :

قاتلتى قد أصبحت   والبحر منهـــا كاظمه
ناديتهـــا يا مهجـــتى   ما الإسم ؟ قالت : فاطمه

وللأزهرى فى نفيسة :

نفيسة بالبها ملكت فؤادى   وأضحت فى ملاحتها رئيسَهْ
وقد حازت لفرط سنا بهاها   وذات الحسن مرتبة نفيسَهْ

ولابن الجميل فى عالمة :

عالمة عاملة بالجفـــاء   قامتها عادلة ظالمهْ
قلتُ لها هل تعلمين الذى   ألقاه قالت إننى عالمهْ

وله أيضاً ـ فيها :

عالمة لهـــا على   كرسيّها فضلٌ جسيم
وأوتيت من كل شى   ء ولها عرش عظيم

ولابن الوردى فى قابلة :

أقول لقـــابلة أدمعى   على حبهـــا تقطع السابلهْ
أنا رجلٌ مقبل للقّـــا   قالت وأنا امرأة قابلهْ

وله فى كاتبة :

كاتبة توقيع نسخ الجفا ... يصدر عن سمتها الراحمهْ
تكتم أسرار رقاعي لها ... أحسن بها كاتبة كاتمهْ

وله فى فقيهة :

تفقّهت فى عذابى ... وبالغت فى جدالى
خود تسيط غرامى ... عن طرفها الغزالى

وللأزهرى — فى خياطة :

أحببتُها كالبدر خياطة ... منزلها فى القلب والطرْف
فلى ركوب الفرج من وصلها ... وللرّقيب الشلّ بالكفّ

وله فى عجانة :

كلف الفؤاد بظبية عجانة ... ما كنت يوماً آمناً من هجرها
عجنت فؤادِى بالغرام فماؤها ... من أدمعى ودقيقها من خصرها

وله فى جبانة — أى بائعة الجبن :

بايعة جبن مُذْ هِمْتُ بها ... رأى الورى روحى بها تعبانهْ
وكلّ أهل الحىّ قد تحققوا ... بأنّنى أموت فى الجبانهْ

وله فى مسحّرَة :

عجبت فى رمضان من مسحِّرةٍ ... بديعة الحسن إلّا أنّها ابتدعَتْ
جاءت تسحّرنا يوماً فقلت لها ... كيف السحُور وهذِى الشمس قد طَلَعتْ

ولابن الوردىّ فى رومية :

روميّةُ الأصل لها مقلةٌ ... تركيَّـة صارمُها هندِى
تفضحنى وجنتُها فاعجبوا ... من وجنةٍ فاضحة الوردِى

وله فى مصريّة :

مصرية كأنّها ... بدر تجلّ من خَلَقْ
تعلقنى مكراً ولا ... ينكر من مص اللقَقْ

وله فى شاميّة :

شامية شامة بوجنتها يرقّ لى فى حبّها الشّامَةُ
أخشى من اللامة إذا قبلتها فشوم بختى ينطقُ الصامتُ

وله فى بدوّية :

وبى من البدو كحلاء الجفون بدت فى قومها كمهاةٍ بين آسادِ
فلو بَدَتْ لحسانِ الحضر قمن لها على الرؤوس وكان الفضلُ للبادِى

وله فى عراقية :

بى هيفاء من بنات العراق أطلقت أدمعى وشدّت وثاقِى
ثم قالت : أتيت من باب ابرز بالعطايا رأيت باب الطّاقِ

وله فى مشرقيّة :

جاءت من المشرق لا مالنا فى عينها شىء ولاجا هنا
وقالت : احـــذر يافـتى فتنةً للنّاس ، والفتنـــة من هاهنا

وله فى مغربيّة :

يابنات الشرق حاذرن السَّطَا إن بنت الغرب فى موكبها
ماظهر البدر من مَشرقِهِ كطلوع الشمس من مغربها

وللأزهرى فى مجوسيّة :

عابدة النور سنا نورها أوضحَ لى فى الحب أعذارا
قد أحرقت قلبى بهجرانها فالويل ممّن يعبد النارا

وله فى نصرانّية :

زنّارُ بنت النصارى فخٌّ لها أى فخّ
رجانى الشدُّ منهُ وكثرةُ الشّدِّ تُرْخِى

وقال آخر فى مليحة تلعب بالشطرنج

لاعبتها بالشطرنج ثم ضربتها بالرخ شاة تسترت بالفيل
قالت : فنفسك ، قلت : حصّنتها لـكن خذى فرسى هناك وفيلى

الغزل ووصف النساء

الغزل والتغزل والفرق بينهما[1] :

قيل لأبي السائب المخزومي : أترى أحداً لا يشتهي النسيب ؟

فقال : أمّا من يؤمن بالله واليوم الآخر فلا !

والنَّسيبُ والتَّغزُّل والتَّشْبِيبُ كلها بمعنى واحد .

قيلَ : الغزل هو إلفُ النّساءِ والتَّخلُّقُ بما يوافقهُن، فمن جعله بمعنى التغزُّل فقد أخطأ. وقدنبّه على ذلك « قُدَامة » وأوضحه في كتابه « نقد الشِّعْرِ » .

وقال الحاتميّ : من حكْم النّسيب الذى يفتتح به الشاعر كلامه ، أن يكون ممزوجاً بما بعده من مَدْحٍ أو ذمٍّ ، متصلابه غير منفصل منه؛ فإنالقصيدة مثلُها مثْلُ خَلْقِ الإنسان في اتِّصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد من الآخر وباينه في صِحَّةِ التركيب ، غادر بالجِسْمِ عاهةً تتخوَّنُ محاسِنَه وتُعَفِّى معالم جمالِه .

ياليل الصبّ متى غده[2] ؟ :

من نوادر الطرائف ماذكره «ابن بشكوال» في كتاب الصلة. كما ذكره الحميديّ أيضاً. وهو : كانأبو الحسن، علىالحصَرِيّ القيروانيّ، ابنُ خالة أبيإسحاق صاحب «زهر الآداب» حافظاً فاقها ، وأديباً عالما بالقراءات وطرقِها .

وقد أقرأ الناسَ القرآنَ الكريمَ في « سَبتَة » وغيرها ، وله قصيدة نظمها في قراءات نافع عدد أبياتها مائتان وتسعة ، وله ديوان شعر . ومن قصائده السائرة القصيدة المشهورة التي أوّلُها :

---

(١) في العمدة : لابن رشيق ج ٢ ص ٩٤ (٢) في وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص٤٣٢

يا ليلَ الصبِّ متَى غدُهُ ... أقِيامُ السّاعةِ موْعِدُهُ

وقد وازنها صاحبنا الفقيه نجم الدين موسى بن محمد الكنانى أبو الفضائل المعروف بالقمراوى رحمه الله بأبيات من جملتها :

قد ملَّ مريضَك عُوَّدُهُ ... ورَثى لأسيرِك حُسّدُهُ

لم يُبْقِ جَفَاكَ سِوَى نَفَسٍ ... زَفَراتُ الشَّوْقِ تُصَعِّدُهُ

هاروتُ يُعَنْعِنُ فى السِّحْـ ... ـرِ إلى عَيْنَيْكَ ويُسْنِدُهُ

وإذا أغمدْتَ اللَّحْظَ فتكْـ ... ـتَ فكَيْفَ وأنْتَ تُجَرِّدُهُ

كم سَهَّلَ خدُّكَ وَجْهَ رضاً ... والحاجبُ مِنْكَ يُعَقِّدُهُ

ما أشْرَكَ فِيكَ القَلْبُ فكَمْ ... فِي نَارِ الهَجْرِ يُخَلِّدُهُ

أمّا قصيدة أبى الحسن على الحصرى القيروانى فهى :

ياليلَ الصَّبِّ مَتَى غدُهُ ... أَقِيامُ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُ

رقَدَ السُّمَّارُ فأَرَّقَهُ ... أَسَفٌ للبيْنِ يُرَدِّدُهُ

فبكاهُ النَّجْمُ ورَقّ لَهُ ... ممّا يرعاهُ ويَرْصُدُهُ

كَلِفٌ بغَزالٍ ذِى هَيَفٍ ... خَوْفَ الوَاشِينَ يُشَرِّدُهُ

نَصَبَتْ عَيْناىَ لَهُ شَرَكاً ... فِي النَّوْمِ فعَزَّ تَصَيُّدُهُ

وكفى عجبا أنِّى قَنِصٌ ... للسِّرْبِ سَبَانِي أَغْيَدُهُ

صَنَمٌ للفِتْنَةِ مُنْتَصِبٌ ... أَهْوَاهُ وَلَا أتعبَّدُهُ

صَاحٍ والخَمْرُ جَنَى فَمِهِ ... سَكْرانُ اللَّحْظِ مُعَرْبِدُهُ

يَنْضُو مِنْ مُقْلَتِهِ سَيْفاً ... وَكَأَنَّ نُعَاساً يغمِدُهُ

فَيُرِيقُ دَمَ المُشّاقِ بِهِ ... والوَيْلُ لِمَنْ يَتَقَلَّدُهُ

كلّا ، لاذَنْبَ لمَنْ قَتَلَتْ ... عَيْنَاهُ وَلَمْ تَقْتُلْ يَدُهُ

يامَنْ جَحَدَتْ عَيْناهُ دَمِى ... وعلى خَدَّيْهِ تورُّدُهُ

خدَّاكَ قد اعترَفَا بدَمِى ... فعلامَ جُفُونُك تَجْحَدُهُ

إنّى لأُعيذكُ مِنْ قَتْلِى وأَظُنُّكَ لَا تَتَعَمَّدُهُ
باللهِ هَبِ المُشْتَاقَ كَرًى فلَعَلَّ خيالَكَ يُسْعِدُهُ
ما ضرّكَ لوْ داويْتَ ضَنى صَبٍّ يُدْنيكَ وتُبْعِدُهُ
لم يُبْقِ هواكَ لَهُ رَمقاً فَلْيَبْكِ عَلَيْهِ عُوَّدُهُ
وغداً يَقْضِى أو بَعْدَ غدٍ هَلْ مِنْ نَظَرٍ .. يَتَزَوَّدُهُ
يا أهْلَ الشَّوْقِ لنا شَرَقٌ بالدَّمْعِ يَفيضُ مورِدُهُ
يَهْوَى المُشْتاقُ لِقاءَكُمُ وصُرُوفُ الدَّهرِ تُبَعِّدُهُ
ما أحْلَى الوَصْلَ وأَعْذَبَهُ لَوْلَا الأيَّامُ تُنَكِّدُهُ
بالبينِ وبالهِجْرانِ ، فيَا لفُؤادِى كيف تَجَلُّدُهُ
الحبّ أعفُّ ذَويهِ أَنَا غَيْرِى بالباطِلِ يُفْسِدُهُ

***

استحسان وضاءة الوجه (١) :

كان لعزّ الدولة غلام ذكىّ وضيء الوجه ، ولفرط ميله إليه ـ جعله رئيس سرية جردت للحرب ، ولم يستحسن المهلبى ذلك منه ، فكتب إليه :

ظَبْىٌ يرقُّ الماءُ فى وَجَناتِهِ ويرُوق عُودُهْ
ناطوا بمَعْقِدِ خَصْرِهِ سيفاً ومِنْطَقَةً تؤُودُهْ
جعلوهُ قائدَ عَسْكَرٍ ضَاعَ الرَّعيلُ ومَنْ يَقُودُهْ

وكانت الدائرة على جيش الغلام كما أشار المهلبى ! .

وفى « خزانة الأدب » للبغدادى ج ٣ :

الجارية : جميلة من بعيد ، مليحة من قريب ، والجميلة هى التى تأخذ بصرك جملة ، فإذا دنت منك لم تكن كذلك ، والمليحة هى التى كلما كرّرْتَ بصرك منها زادتْك حُسْناً .

(١) فى نفح الطيب .

وقيل : الجميلة هى السَّمينة من الجميل وهو الشحم . والمليحة : هى البيضاء ، والصّبيحة كذلك ، من الصُّبْح لبياضِه .

وروى أنس عن النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ أنّه قال : « حُسْنُ الوَجْهِ مالٌ » .

وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً : « اطلبُوا الخيْرَ عِنْدَ حِسان الوُجُوه » .

وقال ابن عمر : قال صلّى الله عليه وسلّم : « ثلاثةٌ تجْلُو البَصَرَ : النَّظَر إلى الخضرة ، والنَّظَر إلى الماء الجارى ، والنَّظر إلى الوَجْه الحسن » .

ونظمها الشاعر فقال :

ثلاثةٌ يُذهِبْنَ للمَرْءِ الحزَنْ　　　الماء ، والخضْرَةُ والوَجْهُ الحسَنْ

***

كواكب لا كواعب :

كان عبد العزيز بن سرايا ، وهو الإمام العلامة شاعر عصره على الإطلاق . وقد أجاد القصائد المطولة والمقاطيع ، وأَتى بما أخجل زهر النجوم فى السماء، كما قد أزرى بزهر الأرض فى الربيع ، تطربك ألفاظه المصقولة ، ومعانيه المعسولة ، ومقاصده التى كأنَّها سهام راشقة وسيوف مسلولة .

وكان مولده يوم الجمعة خامس شهر ربيع الآخر سنة ٦٧٧ هـ . ورحل إلى مصر سنة ٧٢٦ ، واجتمع بالقاضى علاء الدين بن الأثير ومدحه ، كما مدح السلطان الملك الناصر بقصيدة وازى بهـــا قصيدة المتنبى التى أولها : « بأبى الشّموس الجانحات غواربا » وفيها يقول :

أسْبَلْنَ مِنْ فَوْقِ النُّهودِ ذَوائِباً　　　فَتركْنَ حَبَّاتِ القلوب ذَوائبَا

وجَلَوْنَ مِنْ صُبْحِ الوُجوه أشعَّةً　　　غادرْن فَوْدَ اللّيل منْها شائبَا

بيضٌ دعاهنَّ الغبىُّ كواعباً　　　ولو استبانَ الرّشْدَ قال كواكبَا

سَفَّهْنَ رأى المانويَّةِ عِنْدَماَ ... أسْبَلْنَ مِنْ ظُلَمِ الشُّعورِ غَيَاهباَ
وسفرْنَ لى ، فرأيْنَ شَخْصاً حاضرًا ... شُدِهَتْ بَصيرتُه ، وقلباً غائباَ
أشرقْنَ فى حُلَلٍ كأنَّ أديمها ... شَفَقٌ تدرْهِمُه الشُّموسُ جَلابِباَ
وغرَبْنَ فى كِلَلٍ ، فقلتُ لصاحبي: ... «بأبى الشُّموس الجانحات غوارِباَ»
وَمُعَرْبِدِ اللَّحظاتِ يَثْنى عِطْفَهُ ... فيُخَالُ مِنْ فَرحِ الشَّبيبَةِ شَارباَ
حُلْوُ التَّعَتُّبِ والدَّلالِ يَروعُه ... عَتْبِي ، ولستُ أَرَاه إلَّا عاتباَ
عاتَبْتُه فتضرَّجتْ وَجَناته ... وازورَّ ألحاظاً وقطَّبَ حَاجباَ
فأرانى الخدَّ الـكليمَ فَطَرْفُهُ ... ذو النُّونِ إذْ ذَهبَ الغَداةَ مُغاضباَ
ذُو مَنْظَرٍ تَغْدو القلوبُ بحسْنِه ... نَهْباً وإنْ مَنَح العُيونَ مَوَاهباَ
لاغَرْوَ إنْ وَهَبَ اللَّواحظَ حَظْوَةً ... مِنْ نُورِه ، وغدا لقلْبى ناهباَ

كل فتاة بأبيها معجبة[1] :

أرجوزة للأغلب العجلى ، يقول فيها :

كريمةٌ أخوالُهـــا والعَصَبَهْ ... قبَّاء ذَاتُ سُرَّةٍ مُقَعَّبَــهْ
كأنها حقَّةُ مِسْكٍ مُذْهَبَهْ ... ممــكورَةُ الأَعْلَى رَدَاحُ الحجبَةْ
كأنَّها حِلْيَةُ سَيْفٍ مُذْهبهْ ... أَهْوَى لهاَ شَيْخٌ شديدُ العَصَبَهْ
ثمّ انثَنَتْ بِهِ فُوَيْقَ الرَّقَبهْ ... فأعلَنَتْ بِصَوتِها : أَنْ يا أَبَهْ

« كُلُّ فَتاةٍ بِأَبِيها مُعْجَبَهْ »

* * *

(١) فى خزانة الأدب ج ١ : أرجوزة للأغلب العجلى يقول فيها :

أصل بليتى من قد غزانى[1] :

من روائع شعر عبد العزيز بن الحسين بن الحباب الأغلبي السعدى الصقلى المعروف بالقاضى الجليس ـ ما يدعو إلى الحكمة فى غزله ـ وقد عاش نحوا من سبعين عاماً ـ كما تولى ديوان الإنشاء للفائز مع الموفق بن الخلال ، ومن مداعبته :

حيّـــا بتفاحة مخضّبة   من شَفَتَىْ حُبِّه و تَيَّمَنِى
فقلتُ : ما إن رأيتُ مُشْبِهها   فاحمرَّ من خَجْلَةٍ فـكَذَّبنِى

وقال أيضاً :

وأصْلُ بليَّتِى مَنْ قد غزانى   من السّقم المُلِحِّ بعَسْكَرَيْن
طبيبٌ طبُّهُ كغراب بَيْنٍ   يُفرِّق بَيْنَ عافيتى وبينِى
أَتى الحمّى وقدشاخَت وباختْ   فعادَ لها الشّبابُ بنسختَيْنِ
ودَبَّرها بتـــدبيرٍ لطيفٍ   حكاهُ عن سُنَيْنٍ أو حُنَيْنِ
فـكانت نوبةً فى كلّ يومٍ   فصيَّرها بحذقٍ نَوْبَتَيْنِ

وقال أيضاً :

ياوارثاً عن أبٍ وجــدٍّ   فضيلةَ الطبِّ والسَّدَادِ
وحاملًا ردَّ كلِّ نَفْسٍ   همَّت عَن الجسم بالبعـــادِ
أُقْسِمُ لَوْقد طببت دَهْراً   لعـــاد كَوْناً بِلَا فسادِ

وقال من جناس بديع :

رُبَّ بيضٍ سَلَلْنَ باللَّحْظ بيضا   مُرْهَفَاتٍ جُفُونُهنَّ جُفُونُ
وخـدودٍ للدّمع فيها خُـــدودٌ   وعُيونٍ قَدْ فاض منهـا عُيونُ

---

(١) فى فوات الوفيات .

وقال أيضاً :

حَبَّـــذَا مُتْعةُ الشَّبَابِ يُعْ ذَرُ فى حُبِّها خليعُ العِذَارِ
إذْ بِذاتِ الخمارِ أُمْتِعُ لَيْلى وَبِذاتِ الخِمارِ أَلْهُو نَهارِى
والغَوانِى لا عَنْ وِصَالٍ غَوَانٍ والجوارِى إلى جوارِى جَوارِى

***

تشبيب عمر بن أبى ربيعة :

كانت عائشة ابنة طلحة بن عبد الرحمن بن أبى بكر ، مديدة الجسم مكتنزة اللحم ، على جانب وافرٍ من الجمال ، حسنة الصّورة ، وفى خُلُقها أنفةٌ وعزّة وصرامة ، حتّى أنّ أباهريرة رآها يوماً فَسَبَّح وقال : كأنّها من الحور .

وقد روَى أبو الحسن المدائنى ، عن عمر وأبى طارق بن المبارك ، أنّ عمر بن أبى ربيعة قال يشبّب بعائشة ابنة طلحة :

أصبح القلبُ فى الخيال رهيناً مقصَداً يوم فارق الظاعنينا
لم يرُعْنى إلّا الفتـاةُ وإلّا دمعُها فى الرِّدَاء سحًّا سخيناَ
عجَّلت حَمَّةُ الفراق علَيْنا برحيلٍ ولم تخف أن تبيناَ
أنتِ أهوَى العبادِ قُرْباً ووُدًّا لوْ تُواتينَ عاشقاً محزوناَ
قادهُ الطَّرْفُ يوم مرَّ إلى الحيـ نِ جهاراً ولم يخفْ أن يحيناَ
وجَلَا برد بركة جنـــدى ضوء وجـــه يضىء للناظريناَ
فإذا ظَبْية تراعى نعـــاجاً ومَهاً بَهَّجَ المنـــاظر عينـــاَ
قلتُ : من أنتُم ؟ فصَدَّتْ وقالت أمُبِدٌّ سؤالُك العالمينـــاَ ؟
قلتُ : باللّه ذى الجلالة لَمَّا إذْ تبلْتِ الفؤادَ أنْ تَصْدقيناَ
أىّ من تجمعُ المواسمُ أَنتُمْ فأَبينى لنـــا ولا تـكْذِبيناَ

نحن من ساكِنى العراقِ وكُنَّا قبلَها قاطِنِينَ مكة حِيناَ
قد صدقناكِ أن سألْتِ فمَنْ أنـ ـتِ عسى أن يَجُرَّ شأنٌ شؤونا
قدْ نرى أَنَّنا عرفناكِ بالنَّعْـ ـتِ نظنّ وما قَتَلْنَا يقيناَ
بسَوادِ الثَّنِيّتين وثَغرٍ قد نراهُ لنـاظرٍ مُسْتَبيناَ

فكانت عائشة تقول : والله ما قلتُ له هذا وما كلمْتُه قطّ .

وأنبأنا أبو الحسن عبد الله بن قائد قال : دخلت عائشة بنت طلحة بمكة على الوليد بن عبد الملك فحدثته وقالت : يا أمير المؤمنين ، مُرْ لِى بأعوان ، فصيّرِ إليها قوماً يكونون معها ، فحجّت ومعها ستّون بغلًا عليها الهوادج والرحائل .

صُبْحُ المشيب يدلّ على ليل الشباب (١) :

قال الأمير أسامة بن منقذ :

قالوا نهاه الأربعونَ عن الصِّبَا وأخُو المَشيبِ يجُوزُثُمة يَهْتَدى
كم حار فى ليل الشباب ، فدَلَّهُ صُبْحُ المَشيب على الطريق الأقصد
وإذا عددَت سِنِىَّ ثمَّ نقصتُها ومنَ الهمُوم فتلك ساعة مولدِى

* * *

الشاعر الغزال (٢) :

من روائع البيان ما حكاه ابن حيان ، من أن الأمير عبد الرحمن بن الحكم المروانى ، وجّه شاعره الغزال ، إلى ملك الرّوم ، فأعجب الملك حديثه لما حواه من رقة المعانى وخف على قلبه ما احتواه من دقة المبانى ، وسرّ به سروراً عظيماً ، ونال من لدنه وُدًّا وتكريماً ، حتى إنه مال إليه، وقرّبهُ لديه ، فطلب منه منادمته ، إلّا أنَّه امتنع لمَّا أدرك جلية الأمر معتذراً بتحريم الخمر .

(١) فى خلاصة الأثر ج ٣ ص ٢٦ . (٢) فى نفح الطيب ج ١ ص ٤٥١ .

فلمّا أن كان يوماً جالساً عنده، إذ خرجت زوجة الملك وعليها زينتها. ووجهها جميل مشرق، كأنها الشمس الطالعة حسناً وضياء، فما لَبِثَ الغزالُ لا يميل طرفه عنها شغفاً بباهر مااسترعاه منها ، وجعل الملك يحدِّثه وهُوَ لاهٍ عن حديثه . فأنكر ذلك عليه ، وأمر الترجمان بسؤاله. فقال له : عرِّفه أنّى قد بهرنى من حسن هذه الملكة ما قطعنى عن حديثه ، فإنى لم أر قط مثلها . وأخذ فى وصفها وما شاهده من عجيب جمالها ودلالها ، حتى لكأنما شوّقته إلى لقاء الحور العين. فلمّا ذكر الترجمان ذلك لملك الروم، زاد إعجابه بالشاعر الغزال. كما سرّت الملكة بوصفه لها .

غزالٌ قد غزا قلبى (١) :

فى كتاب «المطرب» حكى أبو الخطاب بن دِحْيَةَ أن الغزال ، وشهرة اسمه « غزالٌ » أرسِل إلى بلاد المجوس ، وقد قارب الخمسين أو تزيد ، وقد وَخَطَه الشَّيْبُ ولكنَّه كان مجتمعَ الأَشُدِّ ، ضليع الجسم ، قسياً وسياً ، فسألته يوماً زوجة الملك ، واسمُها (تَوْدُ) عن سنِّه. فقال مداعباً : عشرون سنة. فقالت : وماهذا الشَّيبُ ؟ فقال : وماتنكرين من هذا ؟ ألم تَرَىْ قطّ مُهْراً ينتجُ وهو أشْهَبُ ؟ فأعجبت بقوله ، وقال فى ذلك :

كُلِّفْتَ ياقلبى هوى مُتعِباً ... غالبتَ مِنْهُ الضَّيْغَم الأغلبَا
إنِّى تَعَلَّقْتُ مجوسيَّةً ... تأبى لشمس الحُسْنِ أن تَغْرُبَا
أقصى بلادِ الله فى حيثُ لَا ... يُلْفى إليه ذاهب مَذْهبَا
يا تَوْدُ يا وردَ الشبابِ الذى ... تُطْلِع مِن أَزْرَارِهَا الكوكبَا
يابأَبِى الشَّخصُ الذى لَا أرى ... أَحْلَى عَلَى قَلْبِى ولا أعذبَا
إنْ قُلتُ يوماً إنّ عينى رأتْ ... مُشْبِهَه لم أَعْدُ أن أكْذِبَا
قالت : أرى (فَوْدَيْه) قد نَوَّرَا ... دُعَابَةً تُوجبُ أن أدْعبَا

(١) فى نفح الطيب ج ١ ص ٤٥٠ .

قلت لها : ما بالهُ . . . إنَّهُ قد يُنْتَجُ المَهْرُ كذا أشهبَا
فاستضحكَتْ عُجْباً بِقَوْلِي لَها وإنما قُلْتُ لِكَيْ تعْجَبَا

قال : ولما فهّمها ــ الترجمان ــ شعر « غزال » ضحكت، وأمرته بالخضاب فغَدا عليها، وقد اختضَبَ وقال :

بَكَرَتْ تُحَسِّنُ لى سَوَادَ خِضَابى فكأنَّ ذاكَ أعادَنى لِشَبَابِى
ما الشَّيْبُ عِنْدى والخِضَابُ لواصفٍ إلّا كَشَمْسٍ جُلِّلَتْ بضبابِ
تَخْفَى قليلًا ثمّ يُقْشِعُهَا الصّبَا فَيَصيرُ ما سترتْ به لذهابِ
لا تُنْكِرى وَضَحَ المشيبِ فإنّمَا هُوَ زَهْرَةُ الأفهامِ والألْبَابِ
فلَدَىّ ما تَهْوِينَ مِنْ زَهْوِ الصِّبَا وطَلاوَةِ الأَخْلَاقِ والآدابِ

غرام أم جنون :

من الشعر الرائق ما امتاز به الشاعر أبو الحسن مروان بن عثمان وقد كان يهيم بوصف محبوبته ، ولم يعيّن لها اسماً ــ حتّى لا يُشَهِّر بها فى التشبيب ، ولكيلا يعرفها عند العام ، إلّا لمن لمس ودادها من الخاص، وفى الأبيات التى يناجيها بها معانٍ قد جمع فيها حسن التعبير، سحرًا حلالًا . وكان عفيفاً فى دقة نظمه ، وصفاء تعبيره ، فقال :

تَمَكَّنَ منّى السّقمُ حتّى كأنَّنِى توهُّمُ معنًى فى خَفِىٍّ سُؤالِ
ولو سامحتْ عيناه عينىَّ فى الكَرَى لأشكل منْ طيف الخيالِ خيالِى
سمحتُ برُوحى وهِى عندى عزيزةٌ وجُدتُ بقَلْبِى وهْو عندىَ غالِى
وقد خِفْتُ أن تَقضى علىَّ منيتى ولم أقضِ أوطارى بيومِ وِصَالِ
وهوّنَ ماألقَى مِنَ الوجْدِ أنّه صدودُ دلالٍ لاصدود مَلَالِ
فلو كان ذاكَ الصَّدُّ مِنْه ملالة شددْتُ عَنِ الدنيا مَطِىّ رحالِى

ثمّ مالبث أن استرسل فى مواجيده ، واستلهم مشاعر أناشيده . فقال :

ما بالُ قلبِـك يستبين   أبهِ غرامٌ أم جنون
بَرِحَ الخَفَاء بمـا تجنّ   فأذهب الشَكَّ اليَقين
حتّى مشى بين الجوا   نح والضلوعِ هوًى دفين
وإلى متى قلبُ المُتَـيَّم فى   يَدِ البلوى رَهين
شَخَصَتْ له فيكَ العُيو   ن وقُسِّمَتْ فِيكَ الظُّنون
وسلَبْتَ ألبابَ الورَى   بلواحظٍ فيهـا فتون
وقوامُ أغصان الريا   ض وأين تدركُكَ الغُصُون
الحسْنُ فى الأغصان فنٌّ   وهْوَ فى هـذا فُنون
من أينَ للأغصانِ ذا   كَ الحُسْنُ والسِّحْرُ المبين ؟
أم ذلك الورْدُ الجنِىّ   بخَـدِّهِ والياسمين ؟

***

سلعوس وسلعسة[1] :

قال إبراهيم بن المهدىّ : كنت يوماً بحضرة المأمون ، فقالت لى « عريب » على سبيل العبث : ياسَلعوسُ . فقلت :

أما لعريبَ أن ترى غير سَلْعَسَهْ   فكونِى كما أنتِ ، تكُونى كمُؤْنِسَهْ

فقال المأمون على الفور :

فإن كَثُرَتْ منك الأقاويلُ لم يكُنْ   هُنَالِكَ شَكٌّ أنّ ذَلِكَ وَسْوَسَهْ

قال إبراهيم : فعجبت من فطنة المأمون . وقلت :

كذا ـ والله ـ ياأمير المؤمنين قدّرت ، وإيّاه أردت !

***

(١) فى إرشاد الأديب ج ١ ص ١٦٣ .

عاتكة بنت معاوية :

حدّثني الكراني قال : حدّثني العمري عن الهيثم بن عديّ ـ قال : حدّثنا صالحُ ابن حسان ـ قال : وأخبرني بهذا الخبر محمدُ بن خلف بن المرزبان ـ قال : حدثني محمد ابن عُمَرَ ـ قال : حدّثني محمد بن السّريّ ـ قال : حدّثنا هشام بن الكلبي عن أبيه يزيد ، واللفظ لصالح بن حسّانٍ ، وخبَرُه أتم . قال : حَجَّت عاتِكَةُ بنتُ مُعاويةَ بن أبي سُفْيان ـ فنزلت من مَكَّةَ بِذِي طُوًى، فبَيْنما هي ذات يوم جالسةٌ وقد اشتدّ الحرّ وانقطع الطريقُ، وذلك في وقت الهاجرة ، إذ أمرتْ جواريها فرفعْنَ السِّتر وهي جالسةٌ في مجلِسها ، عليْهَا شُفوفٌ لها ، تنظرُ إلى الطَّريق ، إذْ مرَّ بها أبو دِهْبل الجُمَحِيّ ـ وكان من أجْمَلِ الناسِ وأحسنِهم مَنْظَرًا . فوقفَ طويلًا ينظر إليها وإلى جمالِهاَ ، وهي غافلة عنه ، فلمّا فطِنَتْ له سترت وجهَها ، وأَمَرَتْ بطرح السِّتْرِ . وشتمتْه ، فقال أبو دِهْبل :

إنّي دعاني الحَيْنُ فاقْتَادَنِي حَتَّى رَأَيْتُ الظَّبْيَ بِالبَابِ
ياحُسْنَهُ إذ سَبَّنِي مُدْبِرًا مُسْتَتِرًا عَنِّي بجِلْبَابِ
سبحان من أَوقعها حسْرَةً صُبَّتْ على القَلْبِ بأوْصَابِ
يَذُودُ عنْها إنْ تطَلَّبْتُها أبٌ لَهَا لَيْسَ بِوَهَّابِ
أحلَّهَا قصْرًا مَنِيعَ الذُّرى يُحْمَى بأبْوابٍ وحُجَّابِ

وقال أيضًا :

طالَ لَيْلِي وبِتُّ كالمَحْزُونِ ومَلِلْتُ الثَّواءَ في جيرُونِ
وأطلتُ المقامَ بالشّامِ حتَّى ظَنَّ أهْلِي مُرَجَّماتِ الظُّنُونِ
فَبَكَتْ خشْيَةَ التفرُّقِ جُمْلٌ كبكاءِ القرينِ إثْرَ القرينِ
وهْيَ زهراء مثلُ لُؤْلُؤَةِ الغَوَّاصِ مِيزت منجوْهرٍ مكْنونِ
وإذَا مَا نَسَبْتَهَا لم تَجِدْهَا في سَنَاءٍ منَ المكارِمِ دونِ
ثمَّ خَاصَرْتَها إلى القُبَّة الخَضْـراءِ تَمْشي في مَرْمَرٍ مسْنُونِ

قُبَّةٌ مِنْ مراجِلٍ ضَرَبُوها ... عِنْدَ بَرْدِ الشِّتاءِ فى قَيْطُونِ
عن يَسارِى إذا دخَلْتُ من البا ... بِ وإن كُنْتُ خارجاً عَنْ يمينى
ولقد قلتُ إذْ تطاوَل سُقْمِى ... وتَقَلَّبت لَيْــاتى فى فُنُونِ
لَيْتَ شِعْرِى أمِن هوًى طَارَ نَومى ... أمْ بَرانى البَارِى قصيرَ الجفونِ

***

وصيفة مهدويّة فى مجلس ابن صمادح :

قال ابنُ بَسَّام[1]: كان المُعْتَصِمُ بنُ صُمادِح، يوْماً مع نُدمائه. فأَبْرَزَ لهم وصيفةً مَهْدَوِيَّة مُتَصَرِّفَةً فى أنواع اللَّعب المطْرب من الدَّكِّ. وحضر أيضاً هُناك لاعبٌ مِصْرِىٌّ ساحرٌ، فكان لعبُه حَسَناً، فارتجلَ أبو عبد الله بن الحدّاد :

كَذَا فَلْتَلُحْ قَمَرًا زاهرا ... وتَجْنى الهوَى ناظرًا ناضرًا
وسَيْبُك سَيْبُ نَدًى مُغْدِقٍ ... أقامَ لنـــا هامِياً هامِرَا
وبانَ ليومِكَ ذَا رَوْنَقٍ ... مُنيرًا كَنَوْرِ الضُّحَى باَهِرَا
صبَاحَ اصْطَبَحْنَا بإِسْفارِهِ ... لَحَظْنَا مُحَيًّا العُلَا سَافِرَا
وأطلَعْتَ فيه نجومَ الكُؤُوسِ ... فمـــا زالَ كوكبُها زاهرًا
وأسْمَعْتَنَا لاحناً فاتِناً ... وأحضَرْتَنَا لَاعِباً سَاحِرَا
وثَنَّاه ثانٍ لألْعَابِهِ ... دَقَائِقُ تَثْنى الحِجَا حائرًا
وفى سَوْرَةِ الرَّاحِ مِنْ سِحْرِه ... خواطِرُ ، دَلَّهتِ الخاَطِرَا
إذا ورد اللحظ أثنـــاءها ... فما الوهم عن وِرْدِها صادرًا
ومن حسن دهرك إبداعه ... فمـــا انفكَّ عارضُها ماطِرَا
وسَـــعْدُك يجتلبُ المُغرياتِ ... فيجْمَل غائبُهـــا حاضِرَا

***

(١) نفح الطيب ج ٢ ص ٨١٦ .

وصف جارية المنذر إلى أنو شروان :

أهدى المُنْذِرُ الأكبرُ(١) إلى أنُوشِرْوَانَ ، جاريةً كان أصابَها إذ أغار على الحارث الأكبر بن أبى شمَّرَ الغسَّانِيِّ ، وكتب إلى أنُوشِرْوَان يَصفها فقال :

إنِّى قد وَجّهتُ إلى الملك جاريةً مُعْتدلة الخَلْقِ ، نقيَّة اللونِ والثَّغْر ، بيضاء قَمْراء ، وطْفاء كَحْلاء ، دَعْجاءَ عَيْناء ، قَنْواء شَمَّاء ، بَرْجاء زجَّاء ، أسيلَةَ الخَدِّ ، شهيّة المُقبَّل ، جَثْلَةَ الشَّعْرِ ، عظيمة الهامَةِ ، بعيدةَ مَهْوَى القُرْطِ ، عَيْطاء عريضةَ الصَّدْرِ ، كاعب الثدْيِ ، ضخمة مُشاشِ المَنْكِبِ والعَضُدِ ، حسنة المِعْصَم ، لطيفةَ الكفِّ ، سَبْطَةَ البنَانِ ، ضامرة البَطْنِ ، خَمِيصَةَ الخصرِ ، غَرْثَى الوِشَاحِ ، رَداحَ الإقبال ، رابيةَ الكَفَلِ ، لفاء الفَخِذَيْن ، ريَّاء الرَّوَادِفِ ، ضخْمَةَ المأكمَتَيْنِ ، مُفعَمةَ السَّاقِ ، مشبَعَة الخَلْخَالِ ، لطيفَةَ الكعبِ والقَدَمِ ، قَطُوفَ المَشْيِ ، مكْسَالَ الضُحَى ، بَضَّةَ المَتجرَّدِ . وهى سموع للسَّيدِ ، لَيْسَتْ بَخَنْساء ولا سفْعاءَ ، دقيقة الأنفِ ، عزيزة النفسِ ، لم تُغَذَّ فى بؤْسٍ ، رزينةً حليمةً ، ركينةً ، كريمَةَ الخالِ ، تقْتَصِرُ على نَسَبِ أبيها دون فَصيلتها ، وتسْتَغْنى بفصيلتها دُون جُمّاع قبيلها ، قد أحكمتها الأمورُ فى الأدبِ ، فرأيها رأيُ أهل الشّرَفِ ، وعملها عمل أهل الحاجَةِ ، صَنَاعِ الكَفَّيْنِ ، قطيعةَ اللّسَانِ ، رَهْوَةَ الصَّوْتِ ، ساكِنة ، تَزِينُ الوَلِيَّ ، وتشين العَدُوَّ . إن أردتَهَا اشْتهَتْ ، وإن تَركْتَهَا انتهت .

فارس عربىّ جميل :

حكى محمد بن إسحاق(٢) قال : كنت مشغولًا بأخبار العرب وأشعارها وأذكر أنها من أغرب الأشعار . وأميل إلى ذكر أيام العرب ، وأحبُّ أن أسمَعَها وأجمَعها ، فنزلَ علينا فى بَعض الأيّام فِتيَانِ من بنى ثَعْلَبَة ، فذهبتُ إليهم لأسمعَ مِنْ أشعارهم وأجمعَ من أخبارهم ،

---

(١) فى الأغانى ج ٢ ص ٢٩ .

(١) فى العزيز المحلى ص ٧٦٢ .

فمررت بفناء خَيْمةٍ ، وإذا غلامٌ ما رأيتُ مثلَهُ قطّ حُسْناً وجمالًا . له ذؤابتان كأنهما السِّبحُ المنظومُ، تحتَ ذلك وَجْهٌ كالقمر ليلة تِمِّه . وعنده امرأة أحْسَنُ منه وأجملُ، وأكثرُ ما أسمع من كلامها (يا بُنَىّ) ، وهو يَبْتَسِمُ لها وقد غلب عليه الحياء كأنه كاعبٌ عذراء، ولا يَرُدُّ لها جواباً من الاستحياء. فاسْتَحْسَنْتُ ما رأيت منهما، فدنوت من الخباء، فَبَصُرَتِ المرأةُ بى . ثمّ قالت لى : ياحَضَرِىُّ ، ما حاجَتُك ؟ . فقلت : لاحاجَةَ لى إلّا الذى اسْتَحْسَنْتُ مِنْكِ ومِنْ هذا الغُلامِ . فقالت : أتحبُّ أن أُسْمِعَك شيئاً من خبرِه ، وهو خيرٌ لك من نَظَرِه ؟ . فقلت لها : هاتِى لله دَرُّ أبيكِ . فقالت لى : إنّى حملته تِسْعَةَ أشْهُرٍ ، فكُنَّا فى عَيْشٍ ضَنْكٍ كَدِرٍ ، ورزْقٍ نَزْرٍ حقيرٍ ، حتّى إذا شاء اللهُ أن أضعَه، فوضعتُه ـ بحمد اللهِ خَلْقاً سَوِيًّا ، فلا وَأَبِيكَ ما هُوَ إلّا أن وضعتُه حتَّى منَّ اللهُ علَيْنا ، وأجْزَلَ وسَهَّلَ وتفضَّل ، بيُمْنِ وَجْهِهِ وسعادةِ طَلْعَتِه . فسَمَّيْتُهُ (مَالِكاً) ثمّ أرضعتُه حوْلَيْنِ كامِلَيْنِ . فلمَّا استتمَّ الرَّضَاع ، نقلْتُه من المهْدِ بَيْنِى وبَيْن أبيه ، فنشأَ بينَنا كأنَّهُ شِبْلُ أَسَدٍ ، نقِيه بَرْدَ الشِّتَاء وحر الصَّيْفِ . فلمّا مرّ عليه خمسةُ أعوامٍ ، دفعتُه إلى مُؤَدِّبٍ يُعَلِّمُهُ القُرْآن ، فقرأَه وتلاهُ ، ونظَمَ الشِّعْرَ ورواه ، حتَّى أتمَّ سَبْعَ عَشْرةَ سنةً ، فأركبته عِتَاقَ الخَيْلِ فتفرَّسَ ، وَحَمَلَ السِّلَاحَ فتشَرَّسَ ، ومشى بيْنَ بُيوتِ الحىّ ، وأصغَى إلى صوْتِ الصَّارِخ ، وأنَا خائفةٌ علَيْه وَجِلَةٌ مُشْفِقَةٌ منَ الألْسنَةِ أن تشينه، ومن الألحاظ أن تَعينه ، حتّى شاءَ اللهُ أن تُصيبنا سِنُون أجْدَبَتْ بلادنَا، وكاد يهلِكُ كبارُنا وأطفالُنا ، فخرجْنَا إلى مناَهل غير مناهِلنا ، ونزَلْنَا فى غيرِ منازِلِنَا ، فخرَجَ أصحابُنا لطلَبِ ثأرِهم ، وخَلَّفَهُ عن الرُّكوبِ معهم وَجَعٌ أَصَابَه ، فلا وأَبِيكَ ما علِمْنَا حتَّى دَهَمَتْنَا الخَيْلُ مِن العَدُوِّ ، ولم يتولَّنَا عَقْلٌ ، ولا هَدَوْنَا . فما كانَ إلّا هنيْهَةٌ حتَى حازوا على الأمْوالِ ، وانهزَم الرِّجالُ ، وهُوَ فى البيْت يسألُنى عن الصَّوْتِ ، وأنا أُكاتِمهُ خِيفَةً علَيْه . حتَّى عَلَت الأصواتُ ، وبرَزَتِ المخبآت . فلما سمعَ ذلك ثار كما يثور اللَّيْثُ المغضَبُ ، وأسرجَ فرسَه، ثمّ أفرغ عليْه لأمةَ حرْبِه، وتقلّدَ سيْفَهُ، واعتقلَ رُمْحَهُ. ثمّ لحقَ العَدُوَّ،

فطعنَ أدْنَى فارس منهم فأرداه قتيلًا ، فرجَعُوا إليْهِ ، فرأوْهُ ولدًا لطيفاً ، صبيًّا ظريفاً ، فعطفُوا عليـــه . . . وَتلقَّاهُمْ ضَرْباً بالسَّيْف ، وطعْناً بالرُّمْح ، حتى هَلَكَ أكثرُهم وفرَّ الباقون !

غَنِيُّهُ : شَحَّاذُهْ :

لو كان بالصبرِ الجميل ملاذُهُ ماسحٌ وابلُ دمعـــه ورَذَاذُهُ
مازال جيْشُ الحُبِّ يغزو قلبَهُ حتّى وَهَى وتقطّعَتْ أفلاذُهُ
لم يبقَ فيه من الغرام بقِيَّةٌ إلَّا رسيسٌ يحْتويه جُذَاذُهُ
من كانَ يرغبُ فى السَّلامَةِ فَلْيَـكُنْ أبدًا من الحَدَقِ المراضِ عيَاذُهُ
لا تخدعنَّكَ بالفُتور فإنَّه نظرٌ يضرُّ بقلبك استلذاذُهُ
يا أيُّها الرَّشأُ الَّذى مِن طرفه سهمٌ إلى حَبِّ القلوبِ نفاذُهُ
دُرٌّ يلوحُ بفيك : مَنْ نَظَّامُهُ ؟ خَمْرٌ يَجُولُ عَلَيْه : مَنْ نَبَّاذُهُ
وقناةُ ذاكَ القَدِّ : كيف تقوَّمَتْ ؟ وسِنانُ ذاكَ اللَّحظِ : ما فُولَاذُهُ ؟
رفقاً بجسمك لايذوبُ فإنّنى أخشى بأَنْ يجفُو عليه لَآذُهُ
هاروتُ يَعْجزُ من مواقع سِحْرِهِ وهو الإمام ، فمن ترَى أستاذُهُ
تاللهِ ما عَلِقَتْ محاسنُك امْرَأً إلّا وَعَزَّ عَلَى الوَرَى اسْتِنْقَاذُهُ
أغريْتَ حُبَّكَ بالقلوبِ فأذْعَنَتْ طَوْعاً وقد أوْدى بها اسْتِحْواذُهُ
مالى أتيتُ الحظَّ من أبوابِهِ جَهْدى ، فدامَ نفورُهُ ولِوَاذُهُ
إيّاكَ مِنْ طمع المُنى ، فعزيزُه كَذَلِيله ، وغَنِيُّهُ : شَحَّاذُهُ

العيون

لأعذبنّ العين :

قال الشاعر[1] ابن الصّفدى يصف العيون :

هى التى توقعُ القلبَ فى التعب ، وتوفر نصيبه من أسهم الهمِّ والنَّصب ، وترميه بدواعى الهوان ودواهى الهوَى ، وتسلمه إلى مكايدة الغرام ومكابدة الجوى ، لوعُذِّبتُ بطُول السَّهَرِ وكثرةِ الدُّموع وبفيض الشئون وعدم الهجوع ، وبمسامرة الأحزان والفكر ، وبمراقبة النجوم إلى السَّحَرِ ، وبعدم الإغفاء وطول السَّهَر ـ لـكان استحقاقها وجودَ جود الدمع وإن طما ، وعدمَ منَال المنام وإن نمَا:

لأعَذِّبَنَّ العَيْنَ غَيْرَ مُفَكِّرٍ … فيما جرتْ بالدَّمْعِ أو سَالَتْ دمَا
ولأهجُرنَّ من الرُّقادِ لذيذَهُ … حتى يعودَ علَى الجفونِ محرّمَا
هى أوقَعتْنى فى حبائِلِ فتنةٍ … لو لَمْ تـكُنْ نظرتْ لـكنْتُ مُسَلَّمَا
سفـكتْ دمِى فلأسفحنَّ دموعَها … وهى التى بدأت وكانتْ أظْلَمَا

ولعلَّ موجب هذه الواعظة، والألفاظ التى هى بالتحذير لافظة أنى خرجت فى بعض الأيام متفرِّجاً وسارحاً ، وجائلًا بطرفى فى الرياض وسائحاً ، وصحبنى صديق لى فى المحبّة صادقٌ ، ورفيق لى فيما أرومُ موافقٌ ، قد ملك كلّ حسنٍ ولطافة ، وجمع كلّ حِذْقٍ وظرافةٍ ، يَنْصَبُ لخِدْمتى لا يملُّ ولا يسأم ، ويتعب فى مَرْضاتى لا يكلّ ولا يَنْدَمُ ، ويجتهدُ فى موافقتى لا يمنّ ولا يمّ ، ويحسِنُ مرافقتى لا يُذَم ولا يَذمُّ ، قد اتخذته جُهَينة أخبارى ، وكنزًا لخزائن أَسْرارى ، لا أستطيع مفارقةَ وجْهه الجميل ، وهو عندى كما قيل :

برُوحِىَ مَنْ لا أستطيعُ فِراقَه … ومن هُوَ أوْفَى مِن أخى وشقيقِى
إذا غاب عنّى لم أزل متلفِّتاً … أدورُ بعينى نحْوَ كُلِّ طَرِيقِ

* * *

---

(١) فى لوعة الشاكى ودمعة الباكى .

معانى لفظ العين :

للعلامة أحمد السّجاعى ـ المتوفّى سنة ١١٩٧ هـ ـ قصيدةٌ رائعة فى معانى لفظ العيْن ، وهى فى فنّها غريبةٌ ـ قد أحتوت على معانٍ فى لفظ (عين) . وقد جعلَ حروفَ اسمه فى أوائل أبياتها بالترتيب . وهذه هى القصيدة كما نُقلت من خطّ الشيخ مصطفى البدرى فى كراسة « مجموعة لغوية » :

وقد وضعنا[1] تفسير كلّ لفظ عين فيها بين (قوسين) بعده :

أيا ظبْيَ الفَلَا وكحيلَ عيْنٍ ويا بدْرَ الدُّجَى وضياءَ عين (الشمس)

حُميتَ من المكارهِ ياغزالًا حوَى كلّ الكمالِ بدون عين (العيْب)

ملكتَ القلبَ منّى ياحبيبى وحقِّ المصطفَى المُجْرِى لِعَيْن (الماء)

دعانا للهــداية نِعم طَه رسولٌ قد أبانَ لِطُرْقِ عَيْنٍ (حقيقة القبلة)

أمينٌ سيِّدٌ ما فيــه شكٌّ به تُهدى الأنام بكل عَيْن (الناحية)

له ذاتٌ خلتْ من كلِّ سوءٍ وقلبٌ قد خلَا من شَيْن عَيْن (الرّياء)

سما فوقَ السّماءِ ونال قُرباً وخاطبَ ربَّه وَحَظِى بعَيْنٍ (النظر)

جميلُ النَّفْس والأفعالِ قَطعاً صفىٌّ خالصٌ من قُبْح عَيْنٍ (الميل)

---

(١) وضع تفسير كل لفظ عين بين (قوسين) المغفور له العلامة أحمد تيمور باشا وذلك بالمداد الأحمر.

أذاع الخيرَ فينا كلّ وقتٍ وعوّذَ أمّةً من شرّ عَيْنِ
(إصابة العين)

علَا رتبًا فليْسَ لها انتهاءٌ وأظْهَر دِينَه لخيــار عَيْنِ
(الجماعة)

يُقيم شريعــة غرّاءَ فيناَ بِها . . كم قد هدَى من كلِّ عَيْنِ
(الإنسان)

رؤوفٌ بالعبـادِ رحيمُ قلبٍ عظيمُ القَدْرِ سيّدُ كُلِّ عَيْنِ
(الـكبير)

كريم منتقٍ ، بحرُ العطَايَا فـكَمْ منح الأنام جزيلَ عَيْنِ
(المال)

عظيمُ مُجْتَبًى قد ظَلَّلَتْهُ لدَى حَرٍّ عظائمُ كلّ عَيْنِ
(السحاب)

خليــل الله أحمدُ ذو كمالٍ مجير النَّاسِ من لحْظٍ بعَيْنِ
(المطر)

رحيمٌ بالعبــادِ سريعُ بأسٍ على قومٍ لئامٍ مِثْلَ عَيْنِ
(الطائر)

كبيرُ القَدْرِ فى الداريْن حقًّا مُغيث الناس من حرٍّ لعَيْنِ
(شعاع الشمس)

رسول الله أنت لنــا ملاذٌ لنــا فيك الرّجا يانسل عَيْنِ
(الخيار)

فـكم صرّفت عنا من كروب بدُنْيا ثمّ أُخْرَى عمْدَ عَيْنِ
(الجد واليقين)

وخَلْقُك مَبْدأُ الأشياء حقًّا حبيبى أنت أوّلُ كلّ عَيْنِ
(الشىء)

عليك الله صلّى مع سلام أصولك مثل ذا مَن هم كعَيْنِ
(الذهب)
وآل ثمّ أصحاب جميعاً فهم بذلوا لدين كلّ عَيْنِ
(الدنيا أو النّفس)
وكم قضبُوا بسيف الله رأساً من الأعداء . وكم قهروا لِعَيْنِ
(الشديد)
وكم أحيا بهم ربّى علوماً مغيّبة ومنها ذات عَيْنِ
(الحضور)
كذا أتباعهم ما قال عبد : أيا ظبيَ الفلا وكحيل عَيْنِ
(الباصرة)

وصف العين وأسماء أجزائها :

فى أوّل كتاب « سِحْر العيون » : الباب الخامس فى وصف العين وأسماء أجزائها وعيوبُها الخلْقية وغيرها . قال المؤَلف :

اعلم يانور الأعيان ، وأعزَّ من إنسان عيون الأجفان، أنّ ـ (مقلة العين) فى اللغة هى : الشحمة التى تجمع السوادَ والبياضَ ، سُمِّيتْ بذلك من قولهم : مقلْتُ الرّجلَ فى الماء : إدا غوّصته فيه، وتماقل الرجل فى الماء : إذا غاص فيه، وتماقل الرّجلان فى الماء : إذا تغاوصا فيه ليُعلمَ أيُّهما أصبرُ على الغوْصِ ، فلما كانت ـ حبَّةُ العيْن غائصة فى مائها سمِّيت : المُقْلَة ، ويقال : ما مقَلَتْ عَيْنى مثلَ فلان : أى : ما نظرَتْ، قال الشيخ شهابُ الدين أحمدالحاجبى :

لها عَيْنٌ لهَا غزلٌ وغَزْلٌ مُكَحَّلَةٌ . ولى عَيْنٌ تبَاكتْ
وحاكتْ فى فعايلها المَواضِى فيالَكَ مُقْلَةً غَزَلَتْ وحَاكَتْ

و (الحدقةُ) . هى السوادُ الأعظمُ (فى العَيْنِ) سُمِّيتْ بذلك لأن البياض مُحدِقٌ بها ،

ويقالُ : أحدَقَ القَوْمُ به وحدقوا به ـ لغتان ـ أى : أطافُوا به من جميع نواحيه .

وقال الشريفُ الرّضىُّ :

يا قلبُ مالَكَ لا تفيقُ وقدْ رأتْ عيناكَ كيفَ مَصارعُ العُشّاقِ ؟
فتكت بك الحدَقُ المِرَاضُ ولم تزَلْ تُشْجى القلوبَ جنايةُ الأَحداقِ

و (الناظرُ) : السَّواد الأصْغَرُ الذى يُبْصِر فيه الرائى شخصه ، والعرَبُ تقول : هو مِثالها ، وإنسانُها ، ودوابُها ، وناظرها ، وبصَرُها ، وضيُّها ، وغيرها ولُعبتُها ، وبُؤْبُؤها ، وتمثالها ، وسوادها ، وحبُّها ، ومَدلُكها .

قال ابن مطرفٍ : وهذه الأسماء كلّها لموضع البصَر الذى فى حاسَّة البصرِ ، والجمعُ : نواظِرُ وليْسَ الذى يرَى الرائى صورة نَفْسِه فى ذلك الماء لصفائه ، ويستدلّ على صحة الحاسَّةِ بما تخيَّل فيه .

و (الناظران) ـ أيضاً : عِرقان فى العيْن يسقيان الأنفَ ، يقال إنَّهُ لمرتفعُ النَّاظِرَيْن ، ويقال للذى استحيىَ مِنْ أمرٍ : خَفَض له ناظريه ، والنَّاظرُ يجمع على : نواظر . قال شارح كتاب الفصيح : نَظَرت لعينى ونظَّرْت : انتظرْت وتنظَّرْتُ .

و (نظرتُ) بمعنى : رحمْتُ وتفكَّرْتُ . وأنظرْتُ الرَّجُل : أخَّرْتُه ، وأنْظَرْتُه : جعلته ينتظِرنى ، وقولُه تعالى : (انظرونا) أى : أمْهلونا : قال الشيخ برهان الدين القيراطى :

يا قاتلى بنواظرٍ أجفانُها بسيوفِها الأمثالُ فينا تُضْرَبُ
قُلْ للغزال أو الغزالة إذ رَنَتْ أو لاح يهْرَبُ ذا ، وتِلْكَ تغيَّبُ

و (الحماليقُ) : هى بواطنُ الأجفانِ ، واحدها حملاقٌ ـ قال ابن مطرفٍ : هى التى تَراها ـ إذ قلِبتْ للكُحْلِ ـ محمرةً . وقال الزَّبيدى : الحماليقُ : نواحى العين ، ويقالُ لمؤخرى العينيْن مما يلى الصُّدْغيْنِ : الحقيان ، الواحدُ حقيمٌ . والأشفارُ هى حُروف الأجفانِ التى ينبُتُ عليها الشّعر ، والواحد : شَفْرٌ ، ومنه شِفيرُ الوادى ، وشفيرُ كلّ شىء حَرْفه .

قال الشيخُ جمال الدّين بن نبَاتة :

إذا كانَ شَفْرُ العيْنِ فوْقَ محلِّها فعِندى أنا الأشفارُ خيرٌ من العيْنِ

و (الأهدابُ) : الشَّعرُ النابت عليها ، وَاحدها : هُدْبٌ ـ بضمّ الهاء وسكون الدال المهملة ، قال الشيخ برهانُ الدّين :

أهداب لَحْظِكَ للورَى شرَكٌ فَمَنْ أوْثقته فيهنَّ لا يَتَفَلَّتُ
كَيْف النجاةُ وَرُمْحُ قَدِّكَ مُشْرَعٌ؟ كَيْفَ الخلاصُ وسَيْفُ لَحْظِكَ مُصْلَتُ؟

و(المحْجرُ): مادار بالعيْن، وهو مايبدو من البُرْقع والنِّقابِ ، وجمعُها محاجرُ ، ويقالُ : مَحْجَر ـ بفتح الميم وكسرها ، وفتح الجيم وكسرها أيضاً، وإنَّما سُمِّىَ المحجر محجراً لأنّه مفعل من الحجرِ وهو المَنْع ، فكأنّه مانعٌ عن العَيْنِ من جميع جهاتِها ، ومنهُ الحجرةُ المحيطة بالجدُرِ ، والجمعُ : الحُجُرات .

قال الأمير سيف الدّين المشدّ وأجاد :

إنّ العيون لك الحصون: فَهُدْبُهَا شرُفاتها ، وجُفونُها الأسْوَارُ
وكذا محاجرُها : الخنادقُ حوْلَها والحافظونَ بها هُمُ الأَنْوَارُ

و (الماق) و (المُوقُ) : هو طرفُ العَيْنِ مما يَلِى الأنفَ، وهو مخرَجُ الدمع من العَيْنِ، ولكلّ عيْن مُوقَان، وفى المُوقِ وفى جمعه لُغَاتٌ كثيرةٌ يقالُ : مأق ـ بالهمز، وجمعه آماق، ومُوق ـ غير مهموزٍ ، وجمْعُه أمواقٌ وأماقٍ ومآق . والمقيةُ ـ لُغَةٌ فى الماق أيضاً ، والجمع مُقًى . والماقُ: مقدّمها . وقيلَ : المُوقَ مؤخّر العَيْنِ ، وماقٌ يُجمع على مَواقٍ مثلُ قاضٍ وقَواضٍ . وفى الحديث : « كانَ يَكْتَحِلُ من قِبَلِ مُوقِهِ مرّةً ومن قِبَلِ ماقِه أُخْرى » .

قال المتنبّى يمدحُ كافور الأخشيدىّ :

قَواصدُ كافورٍ توارِكُ غيره ومَنْ وَرَدَ البحرَ استقلَّ السَّوَاقِيَا
فجاءتْ به إنسانَ عَينِ زمانِه وخلَّتْ بياضاً خَلْفَها و (أمآقيا)

و (الألحاظُ) : جمْعُ لحظٍ، وهو مؤخّرُ العَينِ الذى يلى الصدغَ وجمْعُها لحاظٌ، ولواحظُ. فأما اللحظةُ فهى النَّظْرة وجمعها : لحظاتٌ فى القليل ، واللحظ فى الكثير ، ويجوز أن يجعل موضع اللّحظة . يقالُ : لحظ العين ـ مثل رأى العين ويقال : لحظ السماء بطرفه يلحظ لحظاً فهو لاحظ .

قال شيخ الشيوخ الأنصاري بحماة :

يا نظرةً قَدْ جَلَتْ لى حُسْنَ طَلْعته ... حتّى انقضتْ وأدامتْنا على وَجَلِ

عاتبتُ إنسان عينى فى تَسَرُّعِهِ ... فقالَ لى : خُلِقَ الإنْسَانُ مِنْ عَجَلِ

و(الطرف): هوماماَلَ بأحدالسَّوادين:السّوادِالأعظم، والسَّوادِالأصغر. قال ابنُ مطرف: «طرفُ العين تحرُّكُ أشفارها» ويقال : طرْفَة عينٍ ، والعَينُ المطروفة منه مأخوذٌ ، وهو أن يُصيب سوادها شىءٌ فيتأذّى صاحبُها به، وربما أبطلها. وهى « الطَّرفةُ » قال الشيخ علاءالدين الوَداعى :

كم دماء مَطْلولَةٍ فى هَواهُ ... وبها وَرْدُ خَدِّهِ مَطْلُولُ

وحديثٍ من السقام صحيح ... قد رَواهُ عن طَرْفِه مَكْحُولُ

و (القَبلُ) هو مَيْل الحدقة فى النَّظر إلى الأنف . وأنشد الثّعالبي وقد استحسنه فى « فقه اللغة » له ــ قَوْلَ ذى الرّمة :

أشتهى فى الطفلة القبَلَا ... لا كثيرا يشبهُ الحَوَلَا

وقال جرير :

وما زالت القتلى تمجّ دماءها ... بدجْلَة حتى ماءدِجْلَةَ (أَشْكَلُ)

وقول علاء الدين البديوى :

أنا جدّ أنصار النبيّ لأننى ... يا أزرقَ العَيْنين عبْدُ (الأشهَلِ)

وأنشدنى المولى أبو الفتح محمد الرسام الأزهرى :

رَنت رَمَتْ فأصابَتْ ... قلبى ، وأذكَتْ لَهيبَهْ

فهو المصابُ بعَيْنٍ ... (شَهْلَاء) وَهْىَ المُصيبَهْ

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة :

وأغْيَدٍ كُلُّ شىءٍ فيه يعجِبُنى ... كأنّما هُو مَخْلُوقٌ على شَرْطِى

أجفانُه السودُ ماتُخْطِى إذاَ رشَقَتْ ... سهامَها ، وسهامُ اللَّيْلِ ما تُخْطِى

وقال علاء الدين الوداعى :

رمتْنى سودُ عينيْهِ فأصْمَتْنِى ، ولم تُبْطِى
وما فى ذاكَ من بِدْعٍ سِهَامُ الليل ما تُخْطِى

وقال شهاب الدين الزعفرينى :

مليكٌ على العشاق ، سكرانُ طَرْفه فلا عَجَبٌ للَّحظِ منه يُعَرْبِدُ
شكوتُ إليه أسْرَ قلبى فى الهوى فوقَّعَ لى : سِحْرُ الجفون يُخَلِّدُ

وقال بشار بن برد :

يا من برايق ريقه يحيى الورى وبسحر عينيْه النَّواعس تُقْبلُ
مِنْ سِحْرِ عينيْكَ المهاة تعلمَّتْ وكذلك الغزلانُ منها تغزِلُ

وقال ابن عباد :

ونَظَرْن من خَلَلِ السُّتُور بأعْيُنٍ مَرْضَى يُخَالِطُهَا السَّقَامُ صِحاح

وله أيضاً :

وسنَانُ قد خدَع النُّعَاسُ جُفُونَه فحكى بمُقْلَته ذُبول النَّرجس
مذ غضَّ طرفاً بالحيــاء فإنَّنى منه استحيْت بأن أُقَبِّل مؤنسى

وقال الغزّىُّ :

كأنمــا سوادُ عينِ مُنْيَتى كعنــبرٍ يا أنفُسًا لوَّامَهْ
لا تُنــكِرُوا مقالَتى تجاهُلاً مع عِلْمــكُمْ بأنَّهــا لوَّامَهْ

وقال الشهاب بن القطانِ :

شاقنى (مارسُ) فُــولٍ زهــرُهُ حاكَى عُيُونَك
وابتغَى التَّعريضَ ، قُلْنَا : لَعَنَ اللهُ قرونَك

آفة النظر وغائلته :

وكنت إذا أرسلت طرفك رائداً   لقلبك يوماً أتعبتك المناظرُ
رأيت الذى لا كلّه أنت قادر   عليه ولا عن بعضه أنت صابر

ولأبى العباس الصينى :

قم فاسقنى بين خفق الناى والعود   ولا تبع طيب موجود بمفقود
كأساً إذا أبصرت فى القوم محتشماً   قال السرور له قم غير مطرود
نحن الشهود وخفق العود خاطبنا   نزوّج ابن سحاب بنت عنقود

وله أيضاً :

يقرّ الله عينـــك يا جفونى   فقد أعتقت من رقّ السهـادِ
ويا عينى لك البشرى فنـــامى   وتهنيك الســـلامة يا فؤادِى
رغبت عن الهوى وهربت منـه   إليك وكنت دهرى فى جهادِ

وله أيضاً :

سقتنى لتروى الراح روحاً وحقّقت   مواعيدها ذات الوشاح بإنجازِ
على نرجس حيّت به فكأنّها   أناملها انضمّت على حدق البازِى

وله أيضاً :

إذا ضاق صدرى وخفت العـدا   تمثّلت بيتاً بحــالى يليق
فبـــالله نبلغ ما نرتجى   وبالله ندفع ما لا نطيـــق

وله أيضاً :

يغيب البدر يوماً ثمّ يبدو   فمالك غبت عن عينى ثلاثاَ
إذا لم تطلع الإثنين عصراً   فلست بواجدى يوم الثلاثاَ

وله أيضا :

ولقد مررت على الظباء وصادنى   ظبىٌ وعهدى بالظباء تصادُ
نفذت لواحظه إلىّ بأسهمٍ   أغراضها الأرواح والأجسادُ

وله أيضا :

صبّ المداد وما تعَمَّد صبّه   فتوردّ الخد البديع الأزهرُ
يا من يؤثر حبره فى ثوبنا   تأثير لحظك فى فؤادى أكثر

وله أيضا :

من شاء عيشاً رخيًّا يستفيد به   فى دينه ثمّ فى دنياه إقبالا
فلينظرن إلى ما فوقه أدباً   ولينظرن إلى من دونَه مالَا

وله أيضا :

أدرك بقيّة نفس روحها رمق   وقد أذابت هموم النفس أكثرها
وإنّما سلمت منها بقيّتها   لأنها خفيت ضعفاً فلم ترها

وله أيضا :

ألَا حل بى عجب عاجب   تقاصر وصفى عن كنهه
رأيت الهلال على وجه من   رأيت الهلال على وجهه

وقال آخر فى شوق إلى حبيب :

إن غبت عن ناظرى فأنتم   فى القلب يا غاية التمنّى
والظنّ أن لا تخون عهدى   لا خيّب اللهُ فيك ظنّى

تعدد الزوجات والأزواج

هند وأبو سفيان[1] :

كان مسافر بن عمرو بن أمية ، يهوى هندًا بنت عُتْبَةَ بن ربيعةَ، وله فيها شعر يغنّى به. فلمّا فارقت زوجها الفاكه بن المغيرة ، خطبها إلى أبيها ، فلم ترض ثروته وماله ، فوفد على « النعمان » يستعينه على أمره ، ثمّ عاد فكان أوّل من لقيه أبو سفيان ، وعلم منه أنّه تزوّج هندًا .

وكان مسافر من أحسن فتيان قريش جمالًا وشعرًا وسخاءً، وقد عشق هندًا وعشقته، فاتُّهم بها . وقال بعض الرواة : إنّها حملت منه ، فلما بان حملها أو كاد ، قالت له : اخرج . فخرج حتّى أتى الحَيرة ، وأقام عند عمرو بن هند ينادمه ، ثمّ أقبل أبو سفيان بن حرب إلى الحيرة في بعض ما كان يأتيها ولقيه مسافر، فسأله عن قريش، فكان مما قال له أنه تزوج من هند بنتْ عتبة . فدخله من ذلك مااعتلّ معه ، حتى استسقى بطنه .

وروى معروف بن خربوذ أن مسافرًا قال فى ذلك :

أَلَا إن هندًا أصبحت منك مَحْرَمًا ... وأصبحتَ من أدنى حموّتها حِمَى

وأصبحت كالمقمورِ جفن سلاحِه ... يقلِّبُ بالكفَّين قوسًا وأسهمَا

***

حكمة التعدّد في الإسلام[2] :

إنه لمعلوم أن جميع كلام النبوّة شرح للقرآن . قال تعالى: « وأنزلنا إليكَ الذِّكر لتُبَيِّنَ للنّاسِ مانُزِّلَ إليْهِم» وإذا تتبعنا القرآن العظيم لم نجده يذكر المؤمنين إلّا ومعهم المؤمنات ،

(١) الأغانى ج ٨ .

(٢) فى كتاب علم الدين ج ١ لصاحبه على مبارك باشا .

ولا المسلمين إلّا ومعهم المسلمات ، ولا الصّائمين إلّا ومعهم الصائمات . قال تعالى : « وَمَنْ يَعْمَلْ من الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أو أُنْثَى وهُوَ مُؤْمِنٌ فأولئك يَدْخُلُونَ الجَنَّة ولا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا » وقال تعالى : « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أو أُنْثَى وهُوَ مؤمنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبةً وَلَنجزِيَنَّهُمْ أجْرَهُمْ بأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » . وقال تعالى : « إنَّ المُسْلِمِينَ والمسلِمَاتِ والمؤمنِينَ والمؤمنَاتِ والقانتِينَ والقانتاتِ والصّادقِينَ والصّادقاتِ والصّابرِينَ والصّابراتِ والخاشِعِينَ والخاشعاتِ والمتصدّقِينَ والمتصدّقاتِ والصّائمِينَ والصّائماتِ والحافظِين فروجهُمْ والحافظاتِ والذاكرِينَ الله كثيرًا والذاكراتِ أَعَدَّ اللهُ لهُمْ مغفِرَةً وأجرًا عظيماً » هو الجنّة وما فيها . وهكذا فى غير ما آية .

ومن اطلع على موضع ذلك من المصحف الشريف ، فسيقف بنفسه على ماذكر . فالكتاب والسنّة والإجماع على أن للنساء ماللرّجال من الثواب، وعليهنّ ماعليهم من العقاب، لافرق بين حرٍّ ورقيق ، ومولى وعتيق .

وقال صلّى الله عليه وسلّم : « أيّما امرأة غاب عنها زوجها فحفظت غيبته فى نفسها ، وطرحت زينتها، وقيّدت رجلها، وأقامت الصلاة ؛ فإنّها تُحشر يوم القيامة عذراء طفلة ، فإن كان زوجها مؤمناً فهو زوجها فى الجنّة، وإن لم يكن زوجها مؤمناً زوّجها اللهمن الشهداء». فكيف يتوهم ممن اتصف بالعدل فضلا عن اتصافه بالفضل ، أن يضيّع عمل عامل، أو يحرم الراجى فضله الشامل ؟

وهنا تعرّض مستشرق إنكليزى فى سياق حديث رواه المؤلف وقال : لو علمت نساء أوربا بقولك لأحببن دين الإسلام، لكن ربّما يمنعهنّ شيء آخر أشقّ عليهنّ من كلّ شيء، وأضرّ . . هو اتّخاذ الرجل منكم عددًا من الزوجات .

وردّ على المستشرق بأنه لادخل لتعدّد الزوجيّة ولا لدين النصرانيّة فى إحياء العلوم الأدبيّة ولا تقدم الفنون والصنائع الدنيويّة ، ولو كان الأمر كذلك لما احتاج الأوربيون إلى اليونان ومن بعدهم من العرب فى الوصول إلى ما وصلوا إليه ، فالعرب للأوربيين فى كلّ ما علموه ملاذ ، واحتياجهم إليهم كاحتياج المتعلم إلى الأستاذ .

وأما ما كان من أمر تعدّد الزوجات فليس هذا خاصًّا بالمسلمين؛ بل هو عام لهم ولغيرهم، ولم يمنعه إلّا طائفة النصارى فقط، حتى إنّ من قبلهم كانوا يجوّزون التعدّد أيضاً، فقد رأيت فى بعض كتب التواريخ، نقلاً عن دانيال القسيس، أن ملوكَ فرنسا الأوّلين كانوا متزوّجين بزوجات متعدِّداتٍ، مع أنهم كانوا متديّنين بدين النَّصرانيّة. ومن ثَمَّ كان لكلّ من غنطران وشربير وداغوبير الأوّل ثلاث زوجات، ولعمّ داغوبير، وهو فلودمير أربع زوجات فى آنٍ واحدٍ.

وفى سنة سَبعمائة وست وعشرين من الميلاد، كتب البابا غريغور الثالث إلى الواعظ بدسقاس، حين أرسل إليه يسأله عن جواز التزوّج بامرأة ثانية: « إذا أصيبت المرأة الأولى بداء يمنعُها عن القيام بحقوق الزَّوج، جاز له أن يتزوّجَ بامرأة أخرى، وعليه للمصابة مؤنُها الضَّرُورِيَّةُ ».

ولعلّ الحكمة فى إباحة تعدُّد الزَّوجاتِ عند المسلمين، وعند كلّ من كان على رأيهم، أن التدبيرَ الإلٰهيَّ لمَّا ميَّز الرَّجُلَ بقوّة البنية، وطول زمن التَّنَاسُل بالنسبة للمرأة، وسلامته من الأعذار المعتادة للنساء فى أوقاتٍ معيَّنةٍ، كالحيض والنفاس، راعى الشرع جانبه لذلك.

وأمّا حكمة الإفراد التى عوّل عليها النَّصارَى، واستندوا إليها فى الحكم فلا يمكن الجزم باطِّرادها فى كلِّ طبيعةٍ، ولا بأنّها تقطع مايخشونه من المفاسد. فقد أتى زمن يمنع فيه كثير من الأمور الفظيعة التى لاوجودَ لَهاَ فى بلادنا، كقتل الأطفال، وإسقاط الأجنّة ونحو ذلك.

فقال المستشرق الإنكليزى: هذا كلام معقول، لكن نظرت فى المصحف مرَّةً، فرأيت فى السورة الثالثة ماظاهره الأمر بضرب النساء، مع أنه يُخِلُّ بشرف الإنسانيَّة.

فكان الجواب أن هذا لايوجد إلّا إذا علم الزَّوْجُ منها خلاف ما كان يَعْهَدُ، على أنَّه ليس له ذلك من أوّل الأمر، بل يستعمل معها النصيحة، فإن أبت فله أن يؤدّبها بالهجر، فإن لم يُجْدِ الهجرُ ضربَها، بشرط ألّا يَضُرَّ بِهاَ، وألّا يخرج عَلَى حُسْنِ العشرة المأمور به

فى القرآن ، الذى جعل التشديد عليهنّ مذموماً ، وصيّر من عاقبهن على كل مافرط منهنّ ملوماً ، كقوله تعالى : « الطّلاقُ مرّتانِ فإمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أو تسريح بإحسان » .

وكقول الرسول صلّى الله عليه وسلّم : « احملوا النساء على أخلاقهنّ » وقول عمر بن الخطّاب رضى الله عنه : ينبغى للرجل أن يكون فى بيته كالصّبىّ ، فإذا طُلِبَ ما عنده وُجِدَ رَجُلًا » .

وقال بعض الصحابة للنبىّ صلّى الله عليه وسلّم : « ما حقُّ زوجة أحدنا عليه ؟ . قال : أن تُطْعِمَها إذا طعمتَ ، وتكسُوها إذا اكتَسَيْتَ ، ولا تضرب الوجه ، ولا تُقَبح ، ولا تهجر ، إلّا فى البيت » . ومعنى لا تُقَبح : لا تسمعها المكروه ولا تشتمها أو لا تقل لها : قبّحك الله ونحو ذلك .

وفى القرآن الكريم عدا ذلك كثيرٌ مما يعّظم أمر النساء ويوجب رعايتهنّ والمبادرة إلى القيام بحقوقهن . وهل حرّيةُ النساء إلّا أن يبلغن حقوقهنّ على أزواجهنّ ، حسبما تقتضيه المروءةُ ، وصيانة النساء عن الدخول فيما ليس لهنّ من خصائص الرجال .

وليس فيما يقبلُ العقلُ المنزّهُ عن المعصية أن تكون حرية النساء عبارة عن تخليتهنّ وما اشتهين ، مع ما يشاهد فى الأكثر من غلبة شهواتهنّ وأهوائهنّ على عقولهنّ .

المرأة التى تزوج عليها زوجها :

فى « سبحة المرجان[1] » أشعار عن غيرة المرأة التى يتزوج عليها زوجها ، منها قول ابن المعتزّ :

خبّرُوهــا بأننى قد تزوّجـ ... ـت فظلّت تكاتم الغيظ سرّا
ثم قالت لأختها ، ولأخرى ... جزعاً : ليته تزوّجَ عشراً
وأشارت إلى نساء لديهَا ... لاتَرَى دونهنّ للسرّ سترَا
مالقلبى كأنّه ليس منّى ... وعظامى أخال فيهنّ فترَا

(١) سبحة المرجان ص ٢٥٧ أشعار .

عدم زواج الرجل بمن يهواها :

معلوم أن العرب[1] كانوا لا يزوجون الرجل بمن يهواها ، وكان يتحاشى السلام عليها لئلّا يعرف بها .

قال أبو رياش : كان الرجل إذا عُرِف بحبّ امرأةٍ لم يزوِّجوه إياها. وكان إذا سلّم عليها عُرف أنه يهواها ، وقد يسلّم عليها وإن كان فى السلام يأس منها وهـذا من إفراط شوقه وغلبة هواه .

رؤية الرجل المرأة عند تزوّجها[2] :

قال الأصمعى : الحُسْنُ فى العينين ، والجمال فى الأنف ، والملاحة فى الفم .

وقالت امرأة خالد بن صفوان له : إنّك لجميل يا أبا صَفْوَان . فقال : كيف وليس عندى رداء الجمال ، ولا برنُسه ولاعموده . إنّ رداءه البياض وأنا آدم ، وعموده الطول وأنا رَبْعَة ، وبُرْنُسُه سواد الشعر وأنا أشمط . ولـكن قولى : إنّك مليح ظريف .

ورُوى أن النبيّ ــ عليه الصلاة والسلام ــ خطب امرأة ، فأرسل عائشة ــ رضى الله عنها ــ لتنظر إليها ، فلمّا رجعت إليه قالت : ما رأيت طائلًا . فقال : بلى ، لقد رأيت خالًا فى خدّها اقشعَرت منه كلّ شعرة فى جسدك .

وقالت عائشة ــ رضى الله عنها ــ تصف شعورها حينما رأت جورية بنت الضحّاك لأوّل مرة : والله ما هو إلّا أن رأيتها على باب حجرتى ، فـكرهتها . وفى ذلك ما يدلّ على ما كان عليه أزواج النبيّ ــ صلّى الله عليه وسلّم ــ من الغيرة عليه ، والعلم بموقع الجمال عنده .

أما نظرهُ ــ عليه الصلاة والسلام ــ إلى جورية حتّى عرف من حسنها ما عرف ، فذلك لأنّها كانت مملوكة ، لو كانت حرّة ما ملأ عينيه منها ، لأنه لا يكره النظر إلى الإماء . وجائز أن يكون نظره إليها لأنّه نوى تزوّجها .

(١) التبريزى على الحماسة ج ١ .

(٢) فى الروض الأنف .

ورُوِى أنّ امرأة قالت للنبي صلوات الله عليه : إنّى قد وهبت نفسى لك يارسول الله . فصعّد فيها النظر ثمّ صوّب ثم أنـكحها من غيره .

وثبت عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ الرّخصة فى النّظر إلى المرأة عند إرادة نـكاحها . وقال للمغيرة حين شاوره فى نـكاح امرأة : « لو نظرت إليها فإن ذلك أحرَى أن يؤدَمَ بينـكما » . وقال مثل ذلك لمحمد بن مَسْلَمَةَ حين أراد نـكاح بثْيْنَةَ بنت الضَّحاك .

وقد أجازه مالك فى إحدى الروايتين عنه . ذكرها ابن أبى زيد .

وفى مسند البزّار : « لا حرج أن ينظر الرَّجل إلى المرأة إذا أراد تزوُّجها وهى لا تشعر » .

وفى تراجم البخارى فى باب النظر إلى المرأة قبل التزويج أنّ النبيَّ ـ عليـه الصلاة والسلام ـ قال لعائشة ـ رضى الله عنها : أرِيتُك فى المنام يجىء بك المَلَكُ فى سَرَقَةٍ من حرير ، فـكشف عن وجهِك ، فقال لى : هذه امرأتُك . فقلت : إن يكن من عنـد الله يُمْضِهِ ، وهذا استدلال حسن . وفى قوله : إن يكن من عند الله سؤال ـ لأن رؤياه وحى ، فـكيف يشكّ فى أنّها من عنـد الله . والجواب : أنّه لم يشكّ فى صحّة الرؤيا ، ولـكن الرؤيا قد تـكون على ظاهرها ، وقد تـكون لمن هو نظير المرء أو سميّه فمن هاهنا تطرّق الشكّ ما بين أن تـكون على ظاهرها ، أوْ لَهَا تأويل .

وسمعت شيخنا يقول فى معنى هذا الحديث : لا يخلو نظره عليـه الصلاة والسلام إليها من أحد الأمرين ، أو يكون ذلك قبل أن يُضْرب الحِجابُ . وإلّا فقد قال تعـالى : « قل للمُؤْمنين يَغُضُّوا مِنْ أبْصَارهم » .

والنبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ هو بغير شكٍّ إمامُ المتَّقين وقدوة الورعين . وجويرية هى بنت الضحاك بن أبى ضرار بن حبيب بن عائذ . وتوفّيت فى شهر ربيع الأوّل سنة ست وخمسين أو خمس وخمسين من الهجرة .

* * *

رايات من خمر النساء(١) :

وجَّهَ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ عُتْبَةَ بن غَزْوَانَ والياً على البَصْرة، وقال له : ياعتبة ، إنِّى قد استعملتك على أرض الهند ، وهى حَوْمَةٌ من حَوْمَاتِ العدوّ ، وأرجو أن يكفيَك الله ما حوْلَهَا ، ويُعينك عليها . . فإذا قَدُمَ عليكَ العدوُّ ، فاستشرْه ، وادعُ إلى الله ، فمن أجابَك فاقبلْ منـه ، ومن أبى فالجزيةُ ، وإلّا فالسَّيْفُ ، واتَّقِ الله فيما وليتَ ، وإيّاكَ أن تنازعَك نفسك إلى كِبْرٍ ممّا يُفْسِدُ عليك إمْرَتَك ، وقد صحبتَ رسولَ الله ـ صلّى الله عليـه وسلّم ـ فعزُزْتَ به بَعْدَ الذِّلَّةِ ، وقُوِّيتَ بهِ بعد الضَّعْف ، حتى صرتَ أميرًا مُسَلَّطاً ، ومَلِـكاً مُطَاعاً ، تقولُ فيُسْمَعُ منك ، وتأمرُ فيطاعُ أمرُكَ ، فيالَها من نعمة ؛ فاحتفظ من النعمة احتفاظكَ من المعصية ، ولَهِيَ أخوفُهما عندى عليك أن تستدرجَكَ وتخدعَك فتسقط سقطةً تصيرُ بها إلى جهنَّمَ ، أُعيذُكَ بالله ونفسى من ذلك. إنّ النّاس أسرعوا إلى الله حتى رُفِعَتْ لهمُ الدُّنيا فأرادوها ، فأرِدِ اللهَ ولا تُرِدِ الدُّنيا . واتَّقِ مصارعَ الظالمين . انطلق أنت ومن معك حتّى إذا كنتم فى أقصى أرض العرب وأدنى أرض العجم ، فأقيموا . فسار عُتْبَةُ ومن معه ، وأقام بالبَصْرَة ، ثم سار عتبة بالمسلمين إلى أن لقيهم جيش عظيم من الفرس ، فاقتتل الفريقان .

وقال نساء المسلمين : لو لحقنا بهم فـكنّا معهم ، فاتَّخَذْنَ من خُمُرِهِنَّ رايات ، وسرن إلى المسلمين ؛ فلما رأى المشركون الرايات ، ظَنُّوا أنَّ مَدَدًا للمسلمين قد أقبل ، فانهزموا ، وظفر بهم المسلمون !

---

(١) فى « الـكامل » لابن الأثير .

كشف وجه المرأة فى الإحرام :

قالت عائشة — رضى الله عنها[١] : لو علم رسول الله — صلّى الله عليه وسلّم — ما أحدث النساء ، لمنعهنّ من المساجد .

وسئل عقيل — عن كشف المرأة وجهها فى الإحرام ، مع كثرة الفساد فى زمانه أهو أَوْلَى أم التغطيةُ مع الفداء ؟ فأجاب : بأن الكشف شعار إحرامها ، ولا يجوز رفع حكم ثبت شرعاً لحوادث البدع .

وأمّا قول عائشة — رضى الله عنها — فإنّها ردّت الأمر إلى صاحبه فقالت : لو علم لمنع ، ولم تمنع هى .

وقد ندب الشرعُ إلى النظر إلى المرأة قبلَ النكاح ، وأجازَ للشهود النظر . فليس ببدع أن يأمرَها بالكشف ، ويأمر الرِّجال بالغضّ ليكون أعظم للابتلاء .

وإنّما جاء النّصُّ بالنَّهْى عن النقاب خاصّة، كما جاء النَّهْى عن القفازين، وعن لبس القميص والسراويل . ومعلومٌ أنّ نهيه عن لبسِ هذه الأشياء لم يرد أنّها مكشوفة لا تستر البَتَّةَ ، بل قد أجمع النّاسُ على أن — المُحْرِمَةَ تَسْتُرُ بدنَها بقميصِها ودِرعِها، وأنّ الرَّجُلَ يَسْتُرُ بدنَهُ بالرِّداءِ وأسافلَه بالإزارِ .

ومن قال : إن وجه المحرمة كرأس المحرم، فليس معه بذلك نصّ . وقول من قال من السَّلَفِ : إحرامُ المرأة فى وجهها إنّما أرادَ بِهِ أَنَّهُ لا يلزمُهَا اجتناب النّاس كما يلزم الرّجل ، بل يلزمها اجتناب النقاب ، فيكون وجهُها كبدن الرّجل .

وقد قالت عائشة — رضى الله عنها : كنا إذا مرّ بنا الرُّكْبَانُ سَدَلَتْ إحدانا جِلْبَابَهَا علَى وَجْهِهَا . ولم تكن إحداهنّ تتّخذ عوداً تجعلُه بين وجهها وبين الجلباب كما قال بعض الفقهاء، ولا يعرف هذا من امرأة من نساء الصحابة، ولا أمّهات المؤمنين اَلْبَتَّةَ ، لا عملًا ولا فتوى. ويستحيل أن يكون هذا من شعار الإحرام، ولا يكون ظاهراً مشهوراً يعرفه الخاص والعام.

(١) فى بدائع الفوائد.

ومن آثر الإنصافَ وسَلَكَ سَبِيلَ الْعِلْمِ والعَدْلِ تبيَّنَ لهراجح المذاهب من مرْجُوحِهَا، وفاسدها من صحيحها ، والله الموفّق الهادى .

المرأة لعبة زوجها[1] :

البيضة المكنونة[2] بيضة النعام، ويشبّه بهاالنساء لبياضها ، والصُّفرةالّتى تضرب فيها.
قال ذو الرمّة :

. . . . . . «كأنّها فضَّةٌ قد مَسَّهاَ ذَهَبُ »

والمكنونة : المصونة، والنعامة تخفيها بريش ، ولا تُبديها للشمس والرّيح لئلّا تتغير .
وقال الله تعالى : « كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ » .

وعن علىّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ عن النّبىِّ صلّى الله عليه وسلّم ـ أنّه قال :
« المرأة لعبة زوجها ، فإن استطاع أحدكم أن يحسن لعبته فليفعل » .

والمداعبة : المهازحة ، والمغازلة ـ تقول : غازلتنى المرأة : إذا تماجنت عليك فى كلامها وأشارت لك بعينها ، وغزتك بحاجبها حتّى إذا طمعت فيها صدّت عنك . . . والمليحة الصورة : المستملحة . كالدّمى والصّور التى تلعب بها البنات ونحوها .

مات زوجها فتزوّجت ! :

يروى أن امرأة من مدينة « يشكُر » اسمها « أمّ عقبة » كانت عند ابن عمٍّ لها يقال له « غسّان » وأنَّه سألها عما تصنع بعد موته ، فقال :

أخبرى بالذى تريدين بعدى   والذى تضمرين يا أمَّ عُقْبَهْ
تحفظينَ من بَعْد موتى لما قدْ   كان منى من حسن خُلقٍ وصُحْبَهْ
أم تريدين ذا جمالٍ ومالٍ   وأنا فى التراب فى سجن غُرْبَهْ

(١) فى خزانة الأدب للبغدادى. (٢) تكن رأسها : أى تخفيها كما هو مشهور عن النعامة غالبا.

فقالت له : والله لاأجيبُك بكذب ، ولأجعلنَّه آخر حظٍّ منك . وأنشدته :

قد سمعت الذى تقولُ وما قد ياابن عمّى تخاف من أمّ عُقْبَهْ
سوف أبكيك ماحييتُ بنوحٍ ومراثٍ أقولُها أو بِنَدْبَهْ

فلمَّا سمعها أنشأ يقول :

أنا والله واثق بك لـكنْ احتياطاً أخافُ غدر النساءِ
بعد موت الأزواج ياخير من عو شر فارعى حقِّى لحسن الوفاءِ
إنّنى قد رجوت أن تحفظى العهـ ـد فـكونى إن متّ عند الرجاءِ

ثمّ اعتقل لسانُه فلم ينطق حتى مات . فلم تمكث بعده قليلاً حتى خُطبت من كلّ جانب، ورغب فيها الأزواج لاجتماع الخصال الفاضلة فيها ، فقالت مجيبةً لهم :

سأحفظ غساناً على بُعد داره ونرعاه حتّى نلتقى يوم نُحْشَرُ
وإنى لفى شغل عن الناس كلِّهمْ فـكُفُّوا فما مثلى بمن ماتَ يَغْدُرُ
سأبكى عليـــه ماحييت بدمعةٍ تجول على الخدّين تهمى فتهمُرُ

فلمَّا تطاولت الأيام تناست عهده وقالت : من مات فقد فات .

فأجابت بعض خطابها فعقد عليها . فلمَّا كانت الليلة التى أراد الدخول بهـا أتاها آت فى منامها فقال :

عقدت ولم ترعىْ لبعلكِ حرمةً ولم تعرفى حقًّا ولم تحفظى العهدَا
ولم تصبرى حولًا حفاظاً لصاحبٍ حلفت له بتًّا ولم تنجزى الوَعْدَا
غدرت به لـما ثوى فى ضريحه كذلك يُنسى كلّ من سكن اللَّحْدَا

فلما سمعت هذه الأبيات ، انتبهت مرتاعة كأن غسّان معها فى جانب البيت ، وأنـكر ذلك من حضرها من نسائها، فأنشدتهن الأبيات، فأخذن معها فى حديث لينسينها ماهى فيه، فتغفلتهنَّ وأخذت مدية ، فلم يدركنها حتى ذبحت نفسها . فقالت امرأة منهنّ :

للهِ درُّكِ ماذا لقيتِ من غسَّانِ
قتلتِ نفسَكِ حُزْناً يا خـــيرة النِّسْوانِ

وفيت من بعد ماقد هممتِ بالعصيانِ
وذو المعالى غفورٌ لسقطة الإنسان
إنّ الوفاء من اللّهِ لمْ يزل بمكانِ

***

وفاء عائشة بنت طلحة لزوجها المتوفى :

قالت امرأة حاكية[١] : كنت عند عائشة بنت طلحة يوماً ، فقيل لها : هذا الأمير قد جاء ، فتنحيت . ودخل عمر بن عبد الله زوجها فلمّا خرج من عندها ، رأيته وكأنما أوتى ملك سليمان .

ويقال : إن رملة بنت عبدالله ضرّة عائشة هذه قالت لمولاة عائشة يوماً: أريني مولاتك مجرّدةً وأنا أعطيك ألفى درهم . فذكرت الجارية ذلك لعائشة ، فقالت : أنا أتجرّد لها ولا تعلميها أنى عرفت . ثم قامت عائشة فتجرّدت كأنّها تغتسل . وذهبت مولاتّها إلى رملة ضرّتها فأخبرتّها ، فأشرفت عليها وتأمّلتها مقبلة ومدبرة ؛ وأعطت الجارية ألفى درهم وقالت: وددت لوأنّى أعطيتك أربعة آلاف درهم ولم أرها ، وذلك لما راعها من حسن جسدهاالبض، وتناسق جمال أعضائه المثيرة الفاتنة .

ولمّا مات عمر بن عبد الله زوج عائشة ندبته قائمة ، دلالة على أنها لاتتزوّج بعده .

روى الأصفهانى فى كتابه « الأغانى » أنّ عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، استأذنت زوجها عبد الملك فى الحجّ ، فأذن لها وقال : ارفعى إلىّ حوائجك كلّها ، واستظهرى فإن عائشة بنت طلحة تحجّ معك ، فاستظهرت بكلّ ما تقدر عليه ، وخرجت بهيئةٍ حسنةٍ قداجتهدت فيها . فلما كانت بين مكة والمدينة إذا رَكْبٌ قد جاء فضغطها وفرّق جماعتها ، وكان هو رَكْبُ عائشة بنت طلحة !

***

(١) روضة الأعيان للتراجم ص ٤٣٨ .

القبلة وإباحتها[1]

قالت طائفة من العلماء : القُبلة مبَاحة لمن وصل إلى حد يخاف على نفسه من التّلف فى الحين قالوا : لأنّ تركها قد يؤدّى إلى هلاك النفس ، والقبلة صغيرة ، وهلاك النفس كبيرة ، وإذا وقع الإنسان فى مرضين داوى الأخطر ، ولاخطر أعظم من خطر النفس ، حتّى أوجبوا على المحبوب مطاوعته على ذلك . إذا علم أن ترك ذلك يؤدى إلى إهلاكه . واحتجُّوا بقول الله تعالى : « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلّا اللمم . . . » والحديث الذى يقول: يارسول الله إنى لقيت امرأةً أجنبية فأصبت منها كلّ شىء إلّا النكاح، قال: أصليتَ معنا ؟ قال : نعم . قال : إن الله قد غَفَر لك . فأنزل الله تعالى : « وأقِم الصلاة طرفَى النّهارِ وزُلَفاً من اللّيلِ إنّ الحسنات يذهبن السيئات » . رجع إلى المقاطيع :

قال أبو الفرج الجوزىّ :

يا مانع القُبلة من خدِّهِ ... فتَّتَّ قلبى فهو مفتُوتُ
لا تخش أنفاسى ولاحرّها ... فإنّما خدّك ياقوتُ

ولأبى الفضل بن أبى الوفا :

سألتُها رشف ريق ... مستعذب الطعم حلوى
قالت : فصفه ارتجالًا ... فقلت : بعد التروى

ولابن حجّة :

وعاشق ألزم معشوقه قبلةً ... فى فيه فيها شفاه
ولم يخف من جارحى لحظه ... خطفاً وقد باس ولم يخطفاه

ولابن العطار :

جمعت بالراح شملى ... فالله يجمع شملك
وكم يدٌ لك عندِى ... دعنى أقبّل رجلك

---

(١) المنتخبات الشعرية رقم ٦٤٨ شعر تيمور مخطوط ص ٨٧ .

ولآخر :

رأيت في مجلسي مليحاً　　يشبه بدر الدجى وأحْسَنْ
سألتـــه قبـــلةً بخَدٍّ　　فجاد بالوصل لى وأحْسَنْ

وقال آخر :

سألته قبـــلةً ألذّ بهـــا　　فصدَّ عنِّى وقال سروالك
فقلت : لمْ سيِّدى ؟ فجاوبنى:　　عاقبة البوس حل سروالك

ولآخر فى « مشروطٍ على الخدّ » :

بروحى مشروط على الخـــدّ أسمر　　وفا ودنا بعـد التجنّب والسّخط
فقال على اللثم اشترطنـا فلا تزد　　فقبَّلته ألفاً على ذلك الشّرط

ولبعضهم رحمه الله :

قال الحبيب وقد رشفت رضابه　　فى يوم من رمضان لمـا زارا
أفطرت ؟ قلت : نعم رأيتُك طالعاً　　وهلال وجهك يوجب الإفطارا

ولآخر عفا الله عنه :

قبّلت مبسمه فقال تذلُّلاً　　عنـــد اللّقاء له ونَحْنُ صِيَامُ
أفطرت ياهـذا ، فقلت له : ابتدا　　ء الصّوم مع رؤيا الهلال حَرَامُ

وقال آخر فى الجناس :

إنْ كنت تألف بالحبيب وقربه　　فاصبر على جور الرّقيب وداره
إنّ الرّقيب إذا صبرت لحُـكْمِهِ　　ثوّاك فى مثوى الحبيب وداره

* * *

محاسنُ الخَلْقِ والخُلُقِ (١)

عن وهب بن منبّه ـ أنّه قال : قال موسى عليه السلام : أىْ رب أىّ عبـــادك أحبّ إليك ؟ . قال : من أُذكر برؤيته . وقال وهب : قال داود : يارِبّ أىّ عبادك أحبّ إليك؟ قال : مؤمن حسن الصورة . قال : أىعبادك أبغض إليك ؟ قال: كافر قبيح الصورة ...

وفى مسند الإمام أحمد عن النبىّ صلّى الله عليـه وسلّم : إن الله يحبّ الجمال . رواه عبد الله بن عمرو بن العاص وأبو سعيد الخدرىّ ، وعبد الله بن مسعود وجماعة .

وعن حديث ابن حـديج عن أبى مليـكة ، يرفعه : من آتاه الله وجهاً حسناً وخُلُقًا حَسَناً وجعله فى موضع غير شائنٍ له ، فهو من صفوة الله من خلقه .

وفى الصحيحين عن أبى بريدة ـ قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : أوّل زمرة تلج الجنّة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر . وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلم يستحبّ أن يكون الرسول الذى يرسل إليه حسن الوجه حسن الاسم . وكان يقول : إذا أبردتُم إلىّ بريداً فليـكن حسن الوجه حسن الاسم .

وفى مليح :

يا من له وجـــهٌ بدت أنواره ... كالشمس عند طلوعها بل أشرقُ
لولا هواكَ لما جفا جفنى الـكرىٰ ... ليلًا ، وبتُّ بدمع عينى أشرقُ

وفى آخر :

شبّهت بالبـــدر الحبيب فقال لى ... لاح به أثر الصبـــابة لائحُ
لا وجه للتشبيه ، قلت : أما ترى ... وجه الحبيب ؟ فقال: وجه واضِحُ

وقال له :

وجـــه يفوق الهلال حسناً ... ويُخجلُ البـــدرَ إنْ تجلّى
يقول فى الحـال من رآه ... أشهد أنْ لا مليحَ إلّا

(١) الجزءرقم ٦٤٨ شعر تيمور مخطوط ص ٩٨ .

وقال آخر :

أُحبُّ من المردان كلَّ مهفهفٍ رشيق المثنى لم يسْر فى خدّه الشّعرُ
فأما إذا ما الشَّعْرُ فى خَدّه بدا فلا خير فى اللذّات من دونها السّترُ

وقال آخر :

أظهروا وجهَكَ المليح ثمَّ لاموا من افتَتَنْ
لو أرادوا جنـــايتى حجبوا وجهَكَ الحسَنْ

وقال آخر وأجاد :

يا من وهبتُ له روحى فعذَّبها ورمتُ تخليصها منه فلم أطق
أدرك بقيَّة نفس فيك قد بلغت قبـــل المماتِ فهذا آخر الرّمق

ولابن الخطيب فى « الحسن » :

الدُّرُّ فوق جبينه يتـــوقَّدُ والمـــاء فى وجناته يتردّدُ
كتب الهوَى بيد إليه يؤكّد بالحسن فوق جبينه يا واحد

وله أيضاً :

جفون معـــذبى يملأنه مـنّى وإن وداده تـكليفُ
لـكننى لم أنا عنـــه لأنه خبرٌ رواه الجفن وهو ضعيفُ

ولشهاب الدين بن ناصر الدين :

بى سقام من جفون قد جفونى لست أبرا
وعيـــون فاتـكات من سيوف الهنـــد أبرا

ولآخر :

كأنّ مقلته صاد ، وحاجبه نون وموضع تقبيـــلاته ميم
فصرت أعبد منه فى الهوى صنماً وعابد الصّنم الإنسى مخدوم

ولآخر ــ فى العيون :

يا من يشبه نرجساً بنواظر دعج تنبّه إنّ فهمك راقد
أين القيـــاس لمن يصحّ قياسه بين العيـــون وبينه ذا ساعد

وقال أيضاً فى ذلك :

وظبىٌ إذا عاتبت ناعس طرفه ... يلذّ لطرفى فى دجى الليل شهده
أَلَا فاشهدوا قتلِى بسيف جفونه ... ولا تقتلوه إنّنى أنا عبدُه

ولآخر ـ فى العيون السود :

عيونك السود إن مدّت سوالفها ... تحكم علىّ وما أقدر أخالفها
وإن كان حبل الجفا سوّد معارفها ... فى وسط قلبى بنا لناس معالفها

ولآخر ـ فى ذلك :

كنت أشتهى بحبيبى ألف ناقة سود ... وألف أخرى يكن جمّالها مسعود
أنزل إلى الحرب آخذ عود وأعطى عود ... أسلم من الحرب تقتلنى العيون السود

وفى من عينه زرقاء :

بعينـــه الزرقاء ... فى قلبى سهم مطلقُ
واعجباً أحبُّـــهُ ... وهو العدوّ الأزرقُ

وفى أحول :

قالوا! شُغلت بأحول فأجبتهم ... قد زدتمو والله فى أوصافه
لاتحسبوا حولانه .. لـكنّهُ ... من زهره يرنو على أعطافه

وفى من بعينيه رمد :

جاء الحبيب وعيناه بها رمد ... والنّار فى مهجتى تصلى بها كبدِى
وقال أرجو علاجاً قلت واعجبَا ... أسُلّ سيفاً لقتلى فى الهوى بيدِى

وفى الوجنة الحمراء :

الطرف بعدك قد عادت مدامعه ... فهل تأذن لطيفٍ منك يطرقهُ
والقلب فى الوجنة الحمراء ياسكنى ... كعابد النّارِ يهواها وتحرقهُ

وفى مبتسم الثغر :

جَاء بصبح ثغره مبتسماً ... يمشى بليل الشعر فى دلالِ
قلت له : دمت لقلبى هكذا ... ما دامت الأيّام والليالِى

وفى حبيب :

قال الحبيب يقول ثغرى إنّه ذو قرقف داء المحبّة دافعِ
يازيد خذ منه الحديث فإنّه حَسَنٌ رواه مالك عن نافعِ

وقال فى أحور :

وأحور طرفى حاير فى جماله وقلبى ، فقل لى ما الذى فيه أصنعُ
وعرنينه أقنى أشمّ وطرفُهُ كحيلٌ ، وخدّاه من الورد أصبغُ

وفى لجلجة كلام المحبوب :

عابوا التلجلج ـ فى كلام معذّبى فأجبتهم والعذر فيـــه بيانُ
إنّ الذى ينسى الـكلامَ لسانُهُ ولسانُهُ من ريقه سكرانُ

وفى معاينة حسن الحبيب :

لو عاينت عيناك حسن معذّبى مالمتنى ولـكنت أوّل من عذر
عين الرشا ، قدّ القنا ، ردف النقا شعرالدُّجى ،شمسالضُّحى،وجه القمر

ولابن مبارك :

يا أيُّها العشاقُ قد جاءَكم متيَّمٌ يسألُ كَىْ يهتدِى
أَجَيِّدٌ إتلافُ روح امرئٍ على مليحٍ فى الهوى أم ردِى

وقال آخر ـ فى من بيده مدية :

وشادنٌ فى يده مديةٌ جرّدها للفتك من غمدِهَا
ما كان محتاجاً إلى حملها فلحظُه أقطع من حدِّهَا

ولأبى نواس ـ فى أحور ساحر العينين :

ويلى على أحورٍ ممكورِ وساحرِ العينينِ مسحورِ
تختارُه الحورُ علينا كما نختارُهُ نحنُ على الحورِ

وفى من يبكى ! :

يا قمرًا أبصرتُ فى مأتمٍ يندبُ شجوًا بين أثوابِ
لا تبكِ للميّتِ ياسيّدِى وابكِ قتيلًا لك بالبابِ

وفى من ينظر فى المرآة :

وإذا أراد بأن ينزِّهَ طرفَه　　أَخذَ المراة بكفّه فتفرَّجَا
فكأنه وكأنّها فى كفِّهِ　　شمسُ الضُّحى قد قارنتْ بدر الدُّجى

وفى قواس :

قالت لقوّاس له طلعة　　من رام عنها الصّبرَ لم يقدرِ
يا من له وجه كبدر الدُّجى　　بكم تبيع القوسَ للمشترِى ؟

وللأزميرى فى رامٍ :

بأبى وأمّى رامياً يسبِى الحشا　　بلواحظٍ تسطو على العشّاقِ
لما أراد اطلاق سهمٍ رامياً　　زاد الورى عِشْقاً على الإطلاقِ

وفيه أيضاً :

رمى عن قوسه فى الطير سهماً　　على عجلٍ ولم يمهل رويدا
وفوّق نحو قلبى سهمَ طرفٍ　　فلم يخطى بسهميه السويدَا

وفى رمال :

وضاربٌ بالرمل من حسنه　　يزدحم الناس على رملِهِ
كأنّ من أبدع فى خلْقِهِ　　قد خلق العشاق من أجلِهِ
مستخرج فى الرّمْلِ أشكاله　　وما يريدون سوَى شَكْلِهِ

ولابن الوردىّ فى ذلك :

حكى القضيب والقنا　　بالرّمْلِ والأنامِلِ
وقال وصلى غفلة　　إلّا بفيضٍ داخِلِ

وقال فى منجّم :

وربّ منجّم قد صدَّ عنِّى　　ولى أبداً بطلعته ولوعُ
فقلت عساكَ ترجع عن قريب　　فقال الشمس ليس لها رجوعُ

ولابن المزيّن فى تاجر :

وتاجرٌ شاهدت عشاقَه والحرب فيما بينهم تسايرُ
قال على ما اقتتلوا هكذا قلت على عيْنِكَ ياتاجرُ

وللأزميرى — فى تاجر أيضاً :

وتاجرٌ يمنح عشاقه مالًا ووصلًا ليرى نادره
ما ردّ يوماً منها زايراً لأنّه متّسع الدايره

وله فى شاعر :

لا تعــذلونى إذا عشقت شاعراً فى فيــه نظم الدرّ يا رفاق
فهو البــديع حسنه لـكنّه يميــل للترصيع فى الطباقِ

ولآخر فى الخدّ :

بدَا فى الخدّ عارضُه فأضحى عليــه مفيض باللوم يُغرِى
وحاوَلَ أن يرى منّى سُلُوًّا فقال : لقد تعذّر . قلت : صَبْرِى

ولآخر ... اقتباس — فى مَن فى خدّه عذار :

رأيتُ فى خــدّه عذاراً خلعت فى حبّــه عذارِى
قد كَتَبَ الحسنُ فيــه سطراً ويولجُ الليــلَ فى النّهارِ

ولابن المعتز فى ذمّه وهجره :

يارب إن لم يـكن فى وصله طمعٌ ولم يـكن قدح من طول هجرتهِ
فاشف السقامَ الذى فى جفن مقلته واستر محاسن خدَّيْهِ بلحيتهِ

وله أيضاً — عفا الله عنه :

ها قد غَدا فى ثياب الشّعر فى كفنٍ وقد تعفّت معانى وجهك الحسنِ
وكان يعرض عنى حينَ أبصرُه فصرتُ أعرضُ عنــه حين يبصرنى

وقال آخر :

لمــا التحى ومحا الإلهُ جمالَه وكساهُ ثوبَ مذلّة ونفاقِ
كتبَ الزمان بخطّه فى خــدّه هــذا جزاء معذّب العشاقِ

وقال آخر :

غدًا أسودًا بالشّعر أبيض وجهه ... فأصبح من بعــد التنعُّم فى ضَنْكِ
على وجهه أضحى بخطّى عذاره ... تناديهما عيناه حزنًا : قفانبْكِ

ولآخر ... اقتباس :

قتل النّاسَ باللواحظ حتّى ... أذهب الله حسنَه والجمالَا
طلعت ذقنــه وعيناهُ كَلّتْ ... وكفى اللهُ المؤمنين القتــالَا

وآخر . . مثله :

لـمــا بدًا فى خــدّه عارضٌ ... بشّرْتُ قلبى بالسلوِّ المقيمْ
وقلت غدا عارض ممطرٌ ... فجاءنى منه عذابٌ أليمْ

وقال آخر ـ أيضاً :

قلت لمّا تشرّكت عارضاه ... وأباد السوادُ ضوء نهارِهْ
إيش هــذا فقال لى فى جوابى ... كلّ من ماتَ سوَّدُوا باب دارِهْ

ولابن نباتة :

وأمردٌ مقتَه ربُّهُ ... بدّله بعض الضّيا بالظلم
أرسله الله لنـــا آية ... ليعلموا كيف زوال النِّعَم

وله أيضاً ـ رحمه الله :

دارت عذار حبيبى ... حتّى غدا وهو حاير
فياله حسن وجهٍ ... دارت عليه الدوايرْ

وقال آخر :

وخلّصنى من يدى عشقه ... ظلام على خدّه حنـدسَهُ
كنست فؤادى من حسنه ... ولحيتُه كانت المـكنسَهْ

وقال آخر . ولله درّ قائله :

ما فعل الله باليهودى ... ولا بعــاد ولا ثمودِ
ولا بفرعون من عصاه ... ما فعل الشعر بالخــدود

ما قيل فى الأسماء(١) :

فى محمد بن عربى :

أمحمد عساك تشهد لى ... أنى قتيل عيونك النُّجلِ
فقت اللاح فأنت خاتمها ... وكذا سميّك خاتم الرُّسُلِ

وفيه أيضاً :

قالوا تشفّع بالجمـــال ... ولو تثبّت كان أجود
فأجبت إنى مســلمٌ ... أرجو الشفاعة من محمّــد

ولابن العفيف :

أيُّهـــا المودِّع قلبى ... نار وجـــد تتوقَّد
كيفَ تستاَهلُ ناراً ... مهجةً تهوى محمّــد

وفى أحمد :

قد غدا أحمد لى ما أجود ... وكان بالوصل لنــا ينجد
وإن بعـــد يرضى لمشاقه ... فالوصل يا أحمدُ لى أحمد

وفيه أيضاً :

مذ وفا أحمـــد وعدى ... ولهيب الشوق أخمـــد
فأنا فى كل حالٍ ... أشــكر اللهَ وأحمـــد

آخر ولله در قائله :

ولقد قنعت من الحبيب بنظرة ... أطفى بها نارى التى لا تخمد
قالوا فمن شئت تحبُّ ؟ فأجبتهم ... غصن النقا بدر الدُّجى يا أحمد

وفى أبى بكر :

تعشّقت ظبياً فاتن اللحظ فاترًا ... أبو بكر يدعى خليفة طالعة البدر
فلا تنكروا وجدى فإنّى محمّد ... وإنى من أولى الورى بأبى بكر

(١) الجزء مجموع فى الشعر مخطوط رقم ٦٤٨ شعر تيمور ص١١١ .

وفيه أيضاً :

بروحى أبا بكر فديت ومهجتى مليحاً ببدر التمّ فى أفقه يذرى
له طلعة كالبدر والغصن قدّه وناظر من بابل جاء بالسحر

والحجازى ـ فيه أيضاً :

بمدح أبى بكر سموتُ فيا له مليح أرانا وجهه صورة البدر
ولا بدع إذ بالغت فى مدحه إذًا فأحمد من أولى الورى بأبى بكر

ولشهاب الدين التليح ، وأنشده لنفسه :

منّ حبيبى ووفا وعدًا له وحقّقه
ولا عجيبـــاً من أبى بكر الوفا ما أصدقه

وفى عمر :

ما عليهم فى الهوى إذ نظروا حين سمّوك وقالوا : عمر
أبدلوا قافك عيناً غلَطاً أخطأوا ما أنت إلّا قمر

وفى عثمان :

وافى إلىّ بشمعتين ووجهـــه بضـــيائه يزهو على القمرين
ناديت ما الاسم ؟ يا كلّ المنى فأجابنى عثمان ذو النورين

لغز فى عثمان :

يا أيها العارف فى فنّه ومدّعى الفهم وعلم البيان
ما قولـكم فى أحرف خمسة إذا مضى حرف تبقى ثمان

وفى علىّ :

قال العذول مذ رأى قلبى به فى شُغُل
بمن فتنت فى الورى ؟ فقلت دعنى بعلى

وله عفا الله عنه :

بعلى قد همت ما بين الورى وبه قلبى المعنّى قد بلى
وإذا ماغاب عنى شخصه صاح قلبى وحشة يالعلى

ولابن حجر الحافظ رحمه الله :

قلت : هل لى من دوا　　قد غدا قلبى عليلَا
قالوا سلوى كل حبٍّ　　قلت إلّا عن على لا

وللحجازى فى عبد العزيز :

إن عبد العزيز قد جاء نحوى　　شرح حالى أغنى عن التّميز
فى هواه حقًّا لقد طاب ذلى　　حيث أصبحت عبد عبد العزيز

وللأزهرى فى عبد القادر :

حبّى عبد القادر الذى له　　بهجة حسن والورى عبيده
وكيف لا أريده بين الورى　　والله يدرى أننى أريده

لغز فى عبد الله :

اسم من أهواه ياسيّدى　　فيه من العنبر حرفان
وأخو الورد تمام اسمه　　وواحد ليس له ثان

وفى عبد القوى :

عبد القوىّ سبانى　　بقدّه السمهرىّ
وصرت عبداً ضعيفاً　　فى حبّ عبد القوىّ

وفى عبد اللّطيف :

فتنت بعبد اللّطيف الذى　　فطانته أسكنته الفؤاد
ولا عجب إن بدا لطفه　　فعبد اللطيف لطيف العباد

وفى عبد الحفيظ :

عبد الحفيظ الندى　　قد أنجح الله قصده
لا تختشى من ضياع　　فالله يحفظ عبده

وفى محمود :

يقول لى منكر حالى به　　من لك فى ذا الحى مقصود
فقلت لا تسل بحقّ الهوى　　عنه فقصدى فيه محمود

وفيه يهجو :

ما كنت أحسب أنى أجى إلى زمن   يسبنى فيه كلب وهو محمود

وفى إبراهيم :

عجبت لنار قلبى كيف تبقى   حرارتها وحبك تحتويه
فيا نيرانه كونى سلاماً   وبرداً إن إبراهيم فيه

وفيه أيضاً :

لازال بابك للمكارم كعبةً   فتُرى بها للواردين رسوم
حتى يقول القاصدون بأمرهم   هذا المقام وأنت إبراهيم

ولابن نباتة فى خليل :

يغيب خليل الحسن عنى ليلة   فأسأم من ليل طويل أراقبه
وكيف يطيب العيش عندى والكرى   وليس إلى جنبى خليلًا ألاعبه

ولعز الدين الموصلى :

قال حِبّى خليل غيّرت ودّى   وتركت الفؤاد منّى عليلَا
بعد عشق الملاح صرت تقيًّا   ما تراعى من الأنام خليلَا

وقال فى يعقوب :

يعقوب إنّى يوسف قد تركتنى   من الحزن يعقوباً وأصبحت يوسفاَ
وأصبحتُ مخذولًا وقد كنت ناصرًا   وكنت مليكاً صرت عبدًا مكلّفاَ

ولابن الخياط — فيه أيضا :

رأيت أنى فى الكرى لاثماً   مبسمك الشافىَ آلامى
يوسف انبينا بتأويله   فقال هى أضغاث أحلامِى

لغز فيه . . وأجاد :

يا سائلى عن اسم من أحببته   إنّى بمن أهواه غير مصرحْ
فإذا أردت بيانه فاعمد إلى   معكوس سابع كلمة فى « سبّحْ »

وفي موسى :

رأيت في حلق غزالا تحير في وصفه العيون
فقلت ما الاسم قال موسى فقلت هنا تحلق الذقون

وفي عيسى :

ناديت ياعيسى ترفّق بامرئ أحشاؤه قد أحرقت نهاكا
عيسى بن مريم كان يحيي من يرى وتميت أنت الحيّ حين يراكا

في داود :

وثقت بأن قلبي من حديد وفيه على الهوى بأس شديد
فلانَ على هواك ولا عجيب إذا داود لَانَ لهُ الحديد

وفيه أيضا :

أمسى يقرّ بحسنه بدر الدجى وغدا يذوب بحسنه الجلمود
فإذا بدا فكأنّما هو يوسف وإذا شدا فكأنه داوود

في سليمان :

له وجنة تدمى من اللحظ رقة يكاد بها ماء الشبيبة ينهل
فهذا سليمان لرقة خدّه إذا دبّ فيه النّمل كلمه النمل

في خضر :

مهفهف طلمته ليس بها مناظره وقدّه غصن نضر
يجري لنا ماء الحياة وثغره لا تعجبوا ماء الحياة فهو خضر

في رجب :

دموعي ربيع والرقاد محرّم على جفن عيني مذ هجرت بلا سبب
وفي القلب من شعبان نيران نصفه فجد لي بماأرجو من الوصل يارجب

في شعبان :

شعبان قد أمسى يهزّ معاطفاً أبدت حلاوة خصره مع ردفه
لا غرو إن لاحت عليه طلاوة شعبان كلّ حلاوة في نصفه

علي بن سودون ـ في بركات :

رشأ يصيد الأُسد في اللفتات | قد صاد كلّ فتى وكلّ فتاةِ
الوجه منه مبارك فإذا بدا | لا تيأسَنْ يا قلب من بركاتِ

ابن القيصراني في منصور :

يا قمر الوصل في جنة | ما سكنت ولدانها الحور
كم حاربتك الشمس في حسنها | وأنت يا منصور منصور

النواجي في نجم :

قد كنت أحسب نجم الدين يمنحني | من وصله كل ما أهوى وأختار
حتى رماني في نيران مهجته | فصحّ عندي أن النجم غرار

وله في سعد :

أنا قد همت بسعد | وتفانيت بوجده
فاطّرح نصحي ودعني | إنّما المرء بسعده

وله في سعيد :

سموا مني مهجتي سعيدًا | ولي شقاء به يزيد
إذا اجتمعنا يقول صدري | هذا شقيّ وذا سعيد

وله في قاسم

شكوت له حالي وفرط صبابتي | فتاه دلالًا وانثنى وهو باسم
وقال استعر صبري وكن متأسِّياً | فنحن قسمنا وارض بالحب قاسم

ابن العطار في يحيي :

أيمكن سلوتي يحيي ؟ وروحي | تكابد في هواه عليه أشيا
وقلبي يشتهي فيه اكتئابي | ويرضى أن أموت بحب يحيي

وله في هاشم :

في هاشم قلبي بدا دايباً | من لحظه الفاتك بالعالم
وكسر قلبي صحّ في عشقه | لقلّة الإنْصاف في هاشم

وله فى عامر :

حبيبي يدعى فى الأنام بعامر ... وأوّل عشق ليس لى فيه آخر
يهدّد قلبي بالصدود وبالجفا ... على أنّ فيه منزل الشوق عامر

وله فى فرج :

وليس لى مخلص أرجو النجاة به ... من الغامر فقد ضاقت بى الحجج
لكن أضمّن بيت القائل بن رجا ... كلّ الأمور وإن ضاقت لها فرج

آخر :

يا لائمى فى رشيق القد معتدلٍ ... انظر فإن غرامى غير ذى عوج
أشكو الشدائد من وجدٍ أكابده ... ولست أيأس فى شكواى من فرج

للحجاج فى أمير حاج :

منت بزورة للعيد يوماً ... لك الرحمن بالحسنى يجازى
وأمّا إن دعيت أمير حاج ... فلا بدع بحبّك للحجازى

ولابن نباتة فى عماد :

قالوا العماد مليح ... أسبى جميع العباد
بحسنه قلت قصدى ... أنظر لذات العماد

لعزّ الدّين الموصلى فى جرادة :

لقّبوه جرادة وهو ظبيٌ ... فاق حسناً ولم أعره شهاده
صدْته فامتلا فؤادى شحماً ... لا تقولوا بأن صيدى جراده

لابن نباتة فى إلياس :

أفدى مليحاً فى البرايا لم أزل ... طول الزمان عليه فى وسواس
قالوا أتقطعه كبيراً قلت من ... راحات قلب المرء قطع الياس

لغز فى إسماعيل :

اسم من قد هويت ستّ حروف ... نصفها ما تبديت فاستفهموها
عيل صبرى تمام اسم حبيبي ... ما على العالمين لو فهموها

لابن الصايغ، فى حسن :

إن الحسود عندما عاين ذا الحسن افتتن
وقال لا بدع إذا أتى علىٌّ بالحسن

وفى حسين :

حسين سبانى حسنه ولحاظه وقامته كالخيزرانة تنثنى
رمانى بسهم اللحظ قلت له اتئد سميّك مقتول وأنت قتلتنى

وفى بدر :

سمّوه بدراً وذاك لما أن فاق فى حسنه وعمّا
وأجمع الناس إذ رأوه بأنه اسم على مسمّى

وفى كمال الدين :

دينى تكمل مذ جُعلتم قبلتى وسجدت فى أعتابكم بجبينى
وغدوت أنشد فى البرّية كلّها . ما الفخر إلّا فى كمال الدين

فى عزّ الدين :

مولاى عزّ الدين يامن غدا مادحه ما زال فى عزّ
بكم حقيقاً حسنت حالتى والذلّ قد بدّل بالعزّ

فى تاج الدّين :

ببابك تاج الدين قد جئت مهدياً جراهر لفظ لم ينلنى تاجر
فزادت بهاء من عطائك سيدى وفى التاج أبهى ما يكون الجواهر

الشهاب الصائم، فى محبّ الدّين :

فى ملاح لك شتّى ضعف القلب وشتّا
كم ليالٍ مع غزال يا محبّ الدين بتّا

فى شرف الدين ، يهجو ، وأجاد :

لقبوه شرف الدين يرجّون السيادة
كيف يرجى منه خير وهو شرٌّ وزيادة

فى زيتون يهجو فيه :

سمّوك زيتوناً فما أنصفوا لو أنصفوا سمّوك زعرورا
لأن للزيتون زيت يضى وأنت لا زيت ولا نورا

فى يونس :

وقالوا حبيب القلب بدرٌ وقدّه حكى البدر وجها قلت بل هو أملس
فلو لم يكن غصنا لما كان مائلًا ولو لم يكن بدراً لما كان يونِس

آخر ، وأجاد:

شغفت بفتان اللواحظ أهيف له مقلة سوداء والخدّ أطلس
فإن غاب عن عينى تصورت شخصه فيوحشنى والحب فى القلب يونِس

فى مقبل :

يامن تحجب عن محبّ صادق ما زال عنه كلّ يوم يسأل
من لى بيوم فيه يسمح باللقا ويقال لى هذا حبيبك مقبل

فى شاهين :

يامن تسمّى بشاهين وسيمته خطف القلوب وبالألحاظ شاهينا
قد اشتهيناك بالشاهين لا نفسا فهل ترى أنت يا شاهين شاهينا

فى عنبر :

مذ رآنى عنبر حبيبى وعرف رياه قد تعطر
أرشفنى من لماه خمراً وشاقنى من شذاه عنبر

فى بشير :

بشير سبا مهجتى وجا كبدر منير
وقد جاد لى بالرضا وللواصل وافى بشير

فى سنبل :

يقولون لى إذ زار فى الحبّ سنبل وقد فاق ريّا نشره كلّ مندل
أهذا شذا مسك تضوع نشره فقلت له هذا شذا عرف سنبل

فى كافور :

مذ زار كافورنا البديع سنا ووجهه حفّ من سنا النور
شاهدت من خاله بوجنته نقطة مسك تبدو بكافور

فى مسرور :

يقولون لى مسرور وافاك زائراً وقد بت بالصبابة ماسوراَ
فقلت لهم قد زال همى بوصله وقلبى به فى الحب أصبح مسروراَ

فى ريحان، ولله درّه :

فديت ريحان صبا بالجوى وبماد قلبى شفه الأشجان
لما رنا بلحاظه من نرجس وبدا بعارض خدّه ريحان

فى صبيح ، وأجاد :

أرى صبيح مهجتى قد سبى وصير الدمع بخدّ يسيح
فكيف لى بالصبر عن حبّه وقد سبى قلبى بوجه صبيح

فى مبارك :

مبارك ياعذولى أطلت فيه مقالك
لو زارنى كنت أحظى منه بكعب مبارك

فى فرج :

يا قلب صبراً إذ أتانى فرج عساك بالوصل منه تبتهج
وربّما تبلغ المراد وكم قد جاء عند الضيق الفرج

ما قيل فى المهن والحرف :

فى إسكاف :

ربّ إسكاف مليح حسنه ذاب قلبي منه صدًّا وجفا
كلّما أشكو إليه سقمى قال ما عندى سوى هذا الشفا

فى بخانق :

تسلطن فى الملاح بخانق ولم يرض ببدر التم نايب
وصفّ له من الأتراك جندًا وأصبح موكباً تحت العصايب

فى حباك :

يا مليحاً مهذب مقلته صاد قلبي منه بالشرك
مذ رأيت الحبك صنعته قلت هذا البدر فى الحبك

عز الدين الموصلى، فى حجام :

وحاجم فى الكاس أجرى دماً من ساق ساقينا بإشفاق
لكنّه خالف فى شرطه فحكم الكاس على الساق

فى حريرى :

حريرى يبيع الحسن لكن شبيه الغصن والبدر المنير
كسى جسمى السقام ولا عجيب لثوب السقم من هذا الحريرى

وما أحسن من قال ما ينسج على تكّة .. وأجاد :

أنا قفل من حريرى . . . فوق خصر مستدير
أنا لا أفتحُ إلّا . . . عند أوقات السرور

وقال فى حداد، وأجاد :

تعشّقت حداداً بديع ملاحة له طامة فى الحسن تعلو وتشمخ
إذا رمت بالتطريق وصلًا بقربه أراه ستر الغيظ ثم ينفخ

فى حلاوى :

ريق الحلاوى أحلى من حلاوته ... فى خصره دنف والرّدف منقوش
والدّمع سكب وأحشائى تقوضه ... والخد منّى بماء الدمع مرشوش

لابن الوردى فيه أيضاً :

الحلاوى قال لى ... أنا للحسن معدن
سهم عينى مِسبرٌ ... وعــدوّى مكفن

وللصفدى فيه أيضاً :

إن هذا الصَّبى الحلاوى أضحى ... يتجنّى على الـكئيب ويحقـد
لا تعارضه فى هواه بشكوى ... دعه فى دسته يحل ويعقـد

فى حوايجى :

حوايجى أتيت أسأله ... قلت له يا أخا الرضا صف لى
فى عنـق دمّل به ورمٌ ... قال يداوى بمرهم النخـل

لابن الوردى، فى خياط :

لما أتى والمقصّ فى يده . . . ... وفصّـل العاتقين والبـدنا
فقال وصـلًا يعوز قلت له ... العايز الوصـل يا مليح أنا

وأيضاً فيه :

مررت بخياط حكى البدر طلعة ... وشا كل غصن البان لما انثنى قدًّا
يقدّ ويفرى الثوب ثم يخيطه ... فلمْ ثوبُ قلبى لا يخاط وقد قُدَّا

وللأزميرى فيه أيضاً :

لله خيّـاط إذا سألته ... وصـلًا أراه جا بالمطلوب
وإن شكوت غمّتى لردفه ... فرجها بالوصـل والركوب

فى ذهبى :

عشقته ذهبىّ اللون طلعتـه ... أبهى من البدر بل أبهى من الشهب
إن مات طبعاً إليه ليس ذا عجب ... فالناس بالطبع قد مالوا إلى الذهب

وفيه أيضاً :

إلى الذهبي صبا قلبي وكم يدعوه للعطب
ألم ترني على شغفٍ أحبّ الرضع في الذهب

وفي راشد :

أقول لراشدي لما تبدّى عساه يكون لي بالوصل ناجد
بحسن جمالك الحسن المفدى إلى العشاق قد وافاك راشد

وفي رسام :

هويت رساماً كبدر الدُّجى وثغره كالدُّرِّ إذا تبسَّم
قلت له صلني ولو ساعة قال بكم ؟ قلت : بما ترسّم

وفي رفّا :

يا رافيا قطع كلَّ ثوب يا بغية النفس يا مرادى
عسى بخيط الوصال ترفى ما فرّق الهجر من فؤادى

وللصفدى فيه أيضاً :

ورفّاءٍ لهُ وجهٌ مليحٌ محاسنه البديعة ليس تخفى
شغلت به الفؤاد ولا زمانا أرى ثوب الفؤاد يعد زرفاَ

في بياع ريحان :

يا صاح ريحاننا قد زارني وبكاس فيه لمّاً سقاني
لما نظرت إلى شقايق خدّه ساب الفؤاد عذاره الريحان

وللصفدى في سكرى :

سبتني صفات السكرى الذى له بضاعته حتى عدمت قرارِي
مكرر لفظ في سنينات مبسم وأحمر خدٍّ في نبات عذارِ

ولابن العربى . . في مليح يسبي الفؤاد :

وظبي يطرق بمرآته فيسبي فؤادى من لطفه
وهيهات أن أرتجى من هواه خلاصاً ودفنى في كفه

ولبدر الدماميني، في سبّاك :

سبّاك تبر وفضة صنعته　　نواه قلبي فسرّه إذ ذاكا
قلت له سبني أنا وأخي　　قال نعم مذ عشقت سبّاكا

وقال آخر ، وأجاد، في سروجي :

فتنت به سروجيًّا بديعاً　　به قد ذبت وجداً من ضجيج
إذا جذب الغرام له عناني　　يلذّ لىَ الركوب على السروج

في سقا :

لله سقّا له طلعة　　لكلّ حين قد غدا راويه
أروم أن يسكب لي قربة　　وعبرتي من صبوتي راويه

وللأزميري فيه أيضاً :

عشقت سقّا كالزلال رضابه　　فكأنّه من خمرٍ فيه قد انتشا
يروى المبرِّد عن لماه كاملًا　　وإليه قلبي لم يزل متعطِّشا

ولشيخ الشيوخ بحماة ، في شرابي :

سألته من ريقه شربةً　　أطفى بها من كبدى جمره
فقال أخشى يا شديد الظما　　أن تتبع الشربة بالحسره

ولابن الصايغ ، في شماع :

نظرت إليه شماعاً مليحاً　　جميع الحسن منسوب إليه
له خدّ جمر لا لهيب　　يذوب الشمع من أسف عليه

مواليا في صابوني :

حبّيت أهيف رقيق الخصر صابوني　　لما هجر قلت عين الناس صابوني
والله لو فتّشوا قلبي لصابوني　　ما خلت عنه ولو بالنّبل صابوني

ولبدر الدين الدماميني ، في صايغ :

وصايغ شادن هام الفؤاد به　　وحبّه في صميم القلب قد رسخا
يا ليتني كنت منفاخاً على فمه　　حتّى أقبّل فاه كلما نفخا

وله أيضاً فى طبيب :

طبيب يحاكى الغصن فى حركاته   أصيِّر روحى فى هواه سبيلا
عجباً له يبرى السقام بلطفه   وبطرفه يدعي السّقام عليلا

وله فى طحان :

لله طحان تبدى وجهه   قمراً له قمر السماء رقيق
وجناته ماء ولكن قلبه   حجر وأمّا خصره فدقيق

وله أيضاً فى عطار :

قلت لعطار به صبوتى   محمودة والصبر لا يستطاب
أسقيتنى كاس غرامى به   ذبت ومن فيك براني الشراب

وفى مليح جالس عند عطار :

وعطار مررت عليه يوماً   وجدت بجنبه ظبياً رمانى
فقلت له أعندك ماء ورد ؟   فقال : نعم ، وعندى ما لسانى

ولابن الفرس، وأجاد، فى عوام :

يا حسن عوّام كغصن النقا   يبخل بالوصـــل لمن هاما
ويقنع العشاق منـــه بأن   يريهم الأرداف إن عاما

وقال آخر، وأجاد، فىفاخران :

سبانى فاخران بديع حسن   رمى فى القلب بالبحران جمره
فهمت من الغـــرام له بحبّ   وقصدى منه أن أحظى بجرّه

وفى قبانى :

أشرت إلى الحبيب وقد تبدّى   بقبّـانٍ ودمع العين سايل
فدلّ بحسنه تيهاً ونادى   إشارات المحبّ لهـــا دلايل

وللسيد محمد رضوان الرعاد ـ فى قصّاص :

أشكو إلى الله قصّاصاً يجرِّعُنى   بالصد والهجر أنواعاً من القصص
إن تحسن القصّ يمناه فقلتُهُ   أيضاً تقصُّ علينا أحسن القَصَص

فى بايع الـكتان :

ربح محبّ لم يزل قلبـــه من بايع الـكتان من ربط
من طاب التسريح من حبّـــه سرّحه لـكن على المشط

ولابن الوردى ـ فى كفتى :

لى كفتى شبـــانى حسنه لا أرى من محبّة لى مخرجاً
مذ تبدّى فى حديدٍ فحكى قمراً طرّز بالبـــدر الدُّجى

ولابن العفيف ـ فى كوانى :

اسم حبيبى وما يعـــانى قد أظهرا لوعتى ولبى
قالوا على فقلت قـــدرٌ قالوا كوانى فقلت قلبى

وقال آخر ، فى مليح مكحول :

يا أيها الرشأ المـكحول ناظره بالسحر حسبك قد أحرقت أحشائى
إنّ انغماسك فى التيار حقق أنّ الشمس تغرب فى عين من الماء

ولابن الوردى ، فى مزين :

بأبى شادنٌ تملّك روحى بجبين وتحتـــه مقلتـــان
مسك الـكلبتين قلت عجيب من غزال بكفّه كلبتـــان

ولأبى الفضل بن أبى الوفا ، فى مجبر :

أحببت من بين الأنام مجبراً حسن الشمائل شبه ظبى أحورى
ناديتُـه قلبى كسير بالجوى فاسمح وكن بالوصل منك مجبرى

ولابن الوردى، فى مهاميزى :

صاح هـــذا المهاميزى عارضه بالحسن أصبح أرقم وتطريزى
وجاد بالوصل لى يوماً رفست على أكبـاد من لام فيه بالمهاميزى

ولآخر ـ لبايع الفخار :

بايع الفخار بدرٌ قال للعاشق جهره
ما الذى تبغيــه منّى قال قصدى ألف جرّه

وفى ملالى :

ملالى العـــراق نوى حجازا   به العشاق وجـــداً قد أمالا
إذا سألوا وداعاً لم يجبهم   بلا إيهٍ ولا نعم ولا لا

وقال ابن عربى ، فى ناتف :

وقالوا دع المحبوب واهجره دائماً   أَلَمْ تره بعـــد الملاحة ينتف
أينتف من أجلى ويتعب نفسه   وأهجـــره تالله ما أنت منصِف

ولابن الوردى ، فى نطاع :

هويت نطاعاً إذا جيتـــه   بادرنى باللحظ والصفع
أروم أن أحظى بوصـلٍ وقد   قابلنى بالســـيف والنطع

وللسراج الوراق ، فى ورّاق:

يا حسن وراق أرى خدّه   قد راق فى التقبيل عندى ورقّ
تميس فى الدكان أعطافه   ما أحسن الأغصان بين الورق

وقال ابن حبيب فيه أيضاً :

فتنت بحسن وراق نفور   بقلب الصبّ نار البحر أصلَا
صقيل الوجه كم ذرح لديه   وبغضب إن طلبنا منه وصلَا

وللسيد محمد رضوان الرعاد ، فى وقاد :

أحببت وقاداً كبدر طالع   أنزلته برضى الغرام فؤادى
وأنا الشهاب فَلا تعاند عاذل   إن ملت نحو الـكوكب الوقادِ

وللصفدىّ ، فى قطان :

قطاننا مهفهف   تعتلّه أردافُه
ناديت من وجدى به   ياليتنى ندافه

وله فى بياع مرسين :

يا صاح مرسيننا لو زارنى   يوماً لـكان بوصله يشفينى
لمـا نظرت إلى رياض خدوده   سلبَ الفؤاد عذاره المرسينى

وله ، فى بياع نرجس :

بالروح أفدى فوجيا خـــدّه ورد وآس عذاره كالسندس
لـما دنا ونظرت روض جمـاله نزّهتُ طرفى فى عيون النرجس

وله ، فى بياع بنفسج :

ســبا بنفسجنا بحسنه قلبى الشجى
لـما بدا فى خدّه عـــذارهُ البنفسجى

وله، فى بياع تفاح :

لله من بياع تفـاح إذا غلبنى بحسن جبينه الوضاح
لـما نظرت لحسن نرجس كفه هام الفؤاد بخــدّه التفاحِ

وله ، فى بياع سفرجل :

لله من سفرجلى شاقنى بغنج طرف بابلىّ أكحلِ
حيّا بكاسِ الراس مع القرنفل ما أحسن الراح مع السفرجل

وله، فى بياع الورد :

لله وردٌ نبـــا البديع سنا وما جرى فى الثغر من شهدِ
لمـــا تأمّلت روض وجنته تيّم قلبى بخــدّه الوردِ

عــداوة النساء

طاعتهن تردى العقلاء وتذل الأعزاء :

ذمّ بعض الحكماء من القدماء ــ جماعة النساء ، فقال :

هنّ نار توهج ، وسلّم إلى كلّ بلاء ، وهنّ مثل شجرة الدفلى ، لها رونقٌ وبها ثمر إذا أكله البعير آذاه وقد يودى به .

ومن أمثالهم : طاعة النساء تردى العقلاء ، وتذلّ الأعزّاء . . .

ونظر بعض الصالحين إلى امرأة تتزين وتتعطَّر ، فلما فرغت من زينتها ظهرت محاسنها وزاد جمالها ، فقال لمن حوله : إنّما المرأة مثل النار إذا زيد فى حطبها تأججت واشتدّ حرُّها، وضاءت للناس، فهى حسنة المنظر، تحرق من دنا منها.

وقال بعض الحكماء: الكيس من لم تضطره النساء. وقال أيضاً : من كانت لذّته فى النساء، وقع فى أعظم البلاء . .

وقال : من أراد أن يعيش عيشة رغد ، ويحيا حياة بلا نكد ، فلا يشغل فكره بشهوة النساء ، ولا يومى إليهن بطرفه ولا بيده .

وقال حكيم : كلّ أسير يفتكّ إلّا أسير النساء فإنه غير مفكوك ، وكلّ مالك يملك إلّا مالك النساء فإنه مملوك ، وما استرعين شيئاً قط إلّا وضاع ، ولا استؤمنّ على سرٍّ إلا ذاع ، ولا أطقن شرًّا فقصرن عنه ، ولا حوين خيرا فأبقين منه ، فقيل له :

كيف تذمّهنّ ، ولولاهنّ لم تكن أنت ولا أمثالك من الحكماء ؟ !

فقال : مثل المرأة مثل النخلة الكثيرة السلاء ، لا يلامسها جسدٌ إلّا اشتكى ، وحملها مع ذلك الرطب الطيب الجنىّ . والسلاء : جمع سلاة وهى شوك النخل . .

وروى فيهن : أنهن محملات الآصار، ومكلفات الأوزار، وأكثر أهل النار، ولا يصبر عليهن إلّا الأخيار ، وأنّهن يسرعن اللعن ، ويكثرن الطعن . وفى الحديث : أنهنّ يكفرن العشير ، وينكرن الإحسان ، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كلّه ، ثم رأت منك شيئاً قالت : ما رأيت منك خيراً قط !

وقال لقمان : استعذ بالله من شرار النساء ، وكن من خيارهن على حذر .

وقيل لبقراط : أى السباع أحسن صورة ؟ فقال : النساء .

ورأى امرأة ذهبت إحدى عينيها ، فقال : قد ذهب نصف الشرّ .

ورأى البحر قد حمل أمرأة ــ فقال : شرٌّ يجنى شرًّا . . ورأى رأس أمرأة على شجرة فقال : ليت كلّ الشجر يثمر مثل هذا الثمر .

ونظرت عجوز من الفلاسفة إلى رجل يريد أن يعرس ، وقد زيّن داره وزوّقها وكتب على الباب : « لا يدخل علىّ من هذا الباب شىء من الشرّ » .

فقالت له : « فامرأتك من أين تدخل ؟ » .

وتكلّم نسوة عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقال لهن : اسكتن ، فإنما أنتن لعب، إذا فرغ لكن ، لعب بكن .

وقيل إن الإسكندر خرج إليه فى بعض حروبه نساء يحاربنه ، فقال لأصحابه : كفُّوا عنهنّ ، فإنّ ذلك جيش إن غلبناه لم يكن لنا بذلك ذكر ولا فخر ، وإن غلبنا فهى الفضيحة الباقية مع الدهر .

ورأيت فى بعض الكتب أن بعض النسوة لا يسكن مع الرجال، وأن أزواجهنّ يسكن ناحية منهن ، فمتى احتاج الرّجل إلى امرأته أتاها فقضى مدّة عندها وانصرف فإذا ولدت ولداً ربّته حتّى يكبر وأرسلته إلى أبيه . وإن كانت جارية طمست ثديها الأيمن حتى ييبس لئلّا يمنعها الطعن بالرمح ، وتركت الآخر الأيسر ــ لترضع به ولدها ، ومع هذا فلا تؤمن صحبتهنّ ، ولكن لابدّ من الأدب فى ذلك .

قال عمر رضى الله عنه : عوِّدُوا نساءَكم ــ لا ، فإنّ ــ نعم ــ تجريهنّ على الألسنة .

وفى الحديث عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم : « شاوروهنّ وخالفوهنّ »

وقال على ــ رضى الله عنه ــ لابنه محمد بن الحنفيّة : إياكَ يابنىّ ومشاورة النساء ، فإن رأيهن إلى الأفن ، وعزمهنّ إلى الوهن . واكفف عليهن من أنصارهنّ بحجبك إياهنّ ، وإن استطعت ألّا يعرفن غيركَ فافعل، ولا تطل الجلوس معهنّ فيهلكنك وتملّهن، واستبق من نفسك بقيّة .

وقال النبىّ عليه الصلاة والسلام : « كمل من الرجال كثير ، ولم تكمل من النساء إلّا امرأتان : آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران » .

وخاطب النبىّ عليه صلوات الله وسلامه ــ نسوة فقال لهنّ: «إنّكنَّ إذا جعتنّ دقعتنّ، وإذا شبعتنّ أشِرتنّ » . وفى بعض الروايات ورد ــ بدلًا من لفظ (أشِرتنّ : خجلتنّ).

ومعنى (دقعتنّ : خضعتنّ ولصقتنّ بالدقعاء ، وهى غبرة التراب ، ويقال ــ فقرٌ مدقع ، أى ملصق بالدقعاء . وقالوا : رماه الله بالدوقعة ، وهى الفقر والذلّ ، وجوع ديقوع ــ أى : شديد .

وقال النبىّ عليه أفضل الصلاة والسلام ــ فى النساء : « ما تركْتُ بعدى فتنةً أضرَّ على الرّجال من النساء» . وفى الشهاب : النساء حبائل الشيطان. وقال سعيد بن المسيّبِ رحمه الله : ما أيس الشيطانُ من شىء إلّا أتاهُ من قِبَلِ النّساء . وقال وهو ابن أربع وثمانين سنة ، وقد ذهبَ بصرُه : ما شىء أخوف عندى من النساء . وقال بعضهم فى هذا المعنى :

أضَرُّ شىءٍ على الإنسانِ شهوتُهُ ... تلك التى أوْرَدَتْهُ لُجَّةَ النَّكَدِ
إنّ الفضـــول لعمرُ الله أدخَلَهُ ... فى أن يكابِدَ هَمّ الأهلِ والولَدِ
يحتاج داراً وأهلُ الدّارِ يطلبُـهُ ... كلٌّ بشهوتِه ، فليمطِ ، أو .. يَعِدِ
فاضطرّهُ الحال أن يسعَى ليُرْضِيَهُمْ ... فظلّ من بلدٍ يسرِى إلى بلَدِ
كأنّهُ حَجَــرٌ يرمِى به نَزِقٌ ... من هاهنا لهنا ، أو من يَدٍ لِيَدِ
ما هَمّـهُ الدهر إلّا ما يؤلّفهُ ... وما يجمّعُهُ من جيّدٍ ورَدِى

وما يبالى حراماً منــهُ ذاك أتى ... فعلَ امرىءٍ ليس فى الأخرى بمُعْتَقِدِ
حتى إذا اجتمعتْ تلك المكاسب من ... تلك التهاويش بعد الأين والجَهَدِ
أمسَى يُفرِّقُها فيهم ونيَّتُــهُ ... فى كسب أُخرى كذا ، دَأْباً بِلَا أَمَدِ
ورُبَّما أسخط المسكينُ خالقَهُ ... إذْ ليسَ فى فعلِهِ هــذا بمقتصِدِ
الفرْضُ ضيَّعَهُ ، والدِّينُ أتْلَفَهُ ... بالمكرِ والغِشِّ ، ثم الغِلِّ والحَسَدِ
وكلّ ذلك من أجل الغساء ، فلا ... أهلًا بهنَّ ، ولا قُرِّبْنَ من خَلَدِ
يسلُبْنَ لُبَّ ذوى العقل الرصينِ ، كما ... يَصْرَعْنَ من كان ذا أَيْدٍ وذا جَلَدِ
يا رُبَّ شهوةِ وقتٍ أورثت غُصَصًا ... وأعْقَبَتْ حَسَرَاتٍ آخِرَ الأَمَدِ
قد كانَ فى شُغُلٍ عنهنَّ قاطبةً ... بِهَمِّ عيشتهِ لو كانَ ذا رَشَدِ
لكنّه عَمِيَتْ عن ذاكَ مُقْلَتُهُ ... حتّى هَوَى مُكْرَهًا فى هُوَّةِ الأَسَدِ

ومن شعر أبى العمران الميرتلى رحمه الله :

وقالوا : تزوَّجْ فنِعْمَ الفتاةُ ... عَرَضْنا عليك تَنَلْ خَيْرَهَا
ولو أستطيعُ لطلَّقْتُ نفسِى ... فكيفَ أُضيفُ لهــا غَيْرَهَا
أأَشْقى بهــا دونَ ما ضرةٍ ... وآمَنُ من ضَرَّةٍ ضَيْرَهَا
وما تقنعُ العِرْسُ منّى بشىءٍ ... سوى أنْ تصيِّرَنى عَيْرَهَا
فنفسىَ أولى بنفسى ، ودَعْ ... سِواها تَسِرْ وتَصِلْ سَيْرَهَا

بنات الأربعين من الرَّزَايَا :

أنشدنى أبو عبد الله اليزيدىّ ، قال: أَنشدنى عمّى لمحمد بن عبد الله بن طاهر :

مطيّات السرور بنات عشر ... إلى عشرين ، ثم قِفِ المَطَايَا
فإنْ جاوزتهنّ فسر قليلًا ... بنات الأربعينَ من الرَّزَايَا
مقاساةُ النّساءِ مع اللّيالى ... إذا أولدتَهنَّ من البَلَايَا

طرائف عن الحب

حيلة عاشق :

كان لأبى العتاهية الشاعر العباسىّ نوادر لطيفه مع « عُتْبة » جارية المهدى ، تَدُلُّ علَى كمالِ ظرفه ؛ ومن ذلك ما ذكره الخطيب فى تاريخ بغداد قال :

إنّ أبا العتاهية لما ألحَّ فى أمر «عتبة» ـ لأول دخوله بغداد، ولم ينل منها شيئاً، وجدها يوماً قدجلست فى أصحاب الجوهر، فمضى فلبس ثياب راهب، ودفع ثيابه إلى إنسان كانمعه، وسأل عن رجل كبير فى السوق ، فدُلَّ علَى شيخ صائغ ، فجاء إليه فقال : إنّى قد رغبت فى الإسلام علَى يدى هذه المرأة . . يعنى « عُتْبة » .

فقام الشيخ الصائغ وجمع جماعة من أهل السوق ، وجاء إلى «عتبة» فقال لها : إنّ الله قد ساق إليكِ أجراً ، هذا هو راهب قد رغب فى الإسلام عَلَى يديكِ . فقالت : هاتوه . فدنا أبوالعتاهية منها ـ وهو فى زىّ الراهب ـ فقال: أشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمدا عبده ورسوله . ثمّ قطع الزنار ، ومال عَلَى يدِها فقبَّلها .

فلما فعل ذلك، رفعت البُرْنُس عن وجهه، فعرفَتْهُ وقالت: نَحُّوه، لعنه الله ! فقالوا لها : لا تلعنيه فقد أسلمَ . فقالت : إنما فعلت ذلك لقَذَرِه . فعرضوا عليه كسوة ، فقال : ليس لى حاجة إلى هذه ، وإنّما أردتُ أن أَشرُفَ بولائها ، فالحمد لله الذى منّ علَىَّ بحضوركم .

وجلس أبو العتاهية ، فجعلوا يعلمونه (الحمد) وصلّى معهم العصر ، وهو فى ذاك ينظر إليها ، لا تقدر له عَلَى حيلة !

وحدَّث المبرِّدُ : أن « رَيْطَةَ » بنت أبى العباس السفّاح ، وجّهت إلى عبد الله بن مالك الُخزاعى فى شراء رقيق للعتق، وأمرت جاريتَها (عُتْبَةَ) ـ وكانت لها ثم صحبت «الخيزران» بعدها ـ أن تحضر ذلك . فإنّها لجالسة إذ جاء « أبو العتاهية » فى زىّ متنسِّك فقال لها :

جعلنى اللهُ فداكِ ، شيخ ضعيف لا يقوى عَلَى الخدمة . فإن رأيتِ ــ أعزَّكِ الله ــ شرائى وعتقى ، فعلت مأجورة . فأقبلتْ على عبدالله فقالت : إنِّى لَأَرَى هيئة جميلة ، وضعفاً ظاهراً، ولساناً فصيحاً ، ورجلًا بليغاً ، فاشترهِ وأعتقه . فقال : نعم أفعل . ثم قال لها أبو العتاهية : أتأذنين لى ــ أصلحك الله ــ فى تقبيـل يدكِ ؟ فأذنت له ، فقبّل يدها وانصرف . فضحك عبد الله بن مالك وقال لها : أتدرين من هذا ؟ فقالت : لا . قال : هذا أبو العتاهية، وإنّما احتال عليك حتى قبّل يدك !

بين الحبّ والمال :

وكان أبو العتاهية قدقصد بغدادمن الـكوفة، مع زميلين له، ليستفيدبشعره عندأمرائها، ولم يـكن لهم فى بغداد من يقصدونه، فنزلوا غرفةً بالقرب من الجسر، وكانوا يبكّرون فيجلسون بالمسجد الذى بباب الجسر، فى كلّ غداة . فمرّت بهم يوماً امرأة راكبة ، معها خدم سودان. فقالوا : من هذه؟ قالوا : خالصة. فقال أحدهم : قدعشقت خالصة. وعمل فيها شعراً أعانوه عليه.

ثمّ مرّت بهم أخرى ، راكبة أيضاً ، ومعها خدم بيضان. فقالوا من هذه ؟ قالوا : هذه (عتبة) فقال أبو العتاهية : قد عشقت عتبة . وعمل فيها شعراً .

ولم يزالوا كذلك ، حتى شاع الشعر المصنوع إلى الجاريتين ، وتحدَّث النَّاسُ بعشق أبى العتاهية وزميله لهما . فقال صاحبا الجاريتين : نمتحن العاشقين بمال على أن يدعا التعرّض للجاريتين . فإن قبلا المال كانا مستأكلين ، وإن لم يقبلاه كانا عاشقين .

فلما كان الغد ، مرّت (عتبة) فعرض لها صاحبها ، فقال له الخدم : اتبعنا ، فتبعهم ، فمضت به إلى منزل خليط لها بزار . فلما جلست دعت به فقالت له : يا هذا ، إنّك شاب ، وأرى لك أدباً ، وأنا حرمة خليفة . وقد تأنّيتُك، فإن أنت كففت وإلّا أنهيت ذلك إلى أمير المؤمنين ، ثمّ لم آمن عليك .

فقال لها أبو العتاهية : فافعلى، بأبى أنت وأمى، فإنّك إنْ سفكتِ دمى أرحتِنى. فأسألك بالله إلّا فعلت ذلك إذا لم يكن لى فيك نصيب . !

فقالت له : أَبقِ على نفسِكَ ، وخذ هذه الخمسمائة دينار، واخرج عن هذا البلد. فلما سمع ذكر المال ولَّى هارباً، فقالت : رُدُّوه، وألحّت عليه فيها. فقال لها : جُعِلْتُ فداكِ، ما أصنع بعرَض زائلٍ من الدنيا وأنا لا أراكِ ؟ . . والله إنْكِ لتبطئين يوماً واحداً عن الركوب ، فتضيق علىَّ الدُّنيا بما رَحُبَتْ. فزادت له فى الدنانير، وما زالت تلحُّ عليه فلا يزداد إلّا رفضاً.

قليل منك يكفينى :

ومن ألطف ما قاله أبو العتاهية فى (عتبة) قولُه :

بالله ياحُلْوَةَ العينيْنِ زوريني ... قبلَ المماتِ ، وإلّا . . فاستزيريني !
هذان أمران ، فاختارى أحبهما ... إليك، أو .. لَا . فداعى الموتِ يدعونى
إن شئتِ مَوْتاً ، فأنتِ الدهْر مالكةٌ ... روحى، وإن شئتِ أن أحيا ، فأحْيينى
يا (عُتْبَ) ما أنتِ إلّا بدعةٌ خُلِقَتْ ... من غير طين ، وخَلْقُ النّاس من طينِ
إنّى لأعجبُ من حبٍّ يقرِّبُنى ... ممّا يباعدنى عنه ، ويُقْصِينىِ
لو كانَ يُنْصِفنى ممّا كلِفْتُ بهِ ... إذَنْ.. رضيتُ، وكانَ النّصفُ يرضِينى
يا أهلَ ودِّىَ . إنى قد لَطفْت بكم ... فى الحبّ ـ جَهْدى ـ ولكن..لاتبالونى
الحمد لله ، قد كُنَّا نظنّكمو ... من أرحم النَّاس ـ طرًّا ـ بالمساكين
أما الكثير ، فلا أرجوه منك ، ولو ... أطمعتِنى فى قليلٍ كان يكفينى

وله فيها قصائد كثيرة أخرى ، يقول فى إحداها :

ألَا يا (عُتْبَ) يا قمرَ الرَّصافَهْ ... ويا ذات الملاحة والنَّظَافَهْ
رزقت مودّتى ، ورُزِقْتِ عَطفِى ... ولم أُرزقْ ـ فديتك ـ منكِ رَافَهْ
وصرتُ من الهوى دَنِفاً سقيماً ... صريعاً كالصريعِ من السُّلَافَهْ
أظَلُّ إذَا رأيتُكِ مُسْتَكِيناً ... كأنّكِ قَدْ بُعِثْتِ علىَّ آفَهْ

ومن قوله فيها أيضاً :

قالَ لِي أحمدُ ، ولم يدرِ مَا بِي — أتُحِبُّ الغداةَ (عُتْبَةَ) حقًّا ؟
فتنفَّسْتُ ، ثم قلتُ : نعم ، حبًّا — جرَى فى العروق ، عرقاً فعرقَا
لوْ تَجسِّينَ يا (عُتَيْبَةُ) قلبِي — لَوَجَدْتِ الفؤاد قرحاً . . تفقَّا
قَدْ لَعَمْرِى ملَّ الطّبيبُ وملّ الا — أهلُ منّى ، ممّا أقاسِي وألْقَى
لَيْتَنِي متّ فاسترحْتُ ، فإنى — أبداً ـ ما حييت ـ منْهُ ملقّى

وفيها يقول :

(عُتْبَ) ما لِلْخَيال — خبِّرِيني ومالِي ؟
لا أراهُ . . . أتانى — زائراً . . . مُذْ لَيَالِ
لَوْ . . رآنى صَديق — رقّ لِي ، أو رَثَى لِي
أَوْ . . يرانى عَدوِّى — لان من سُوء حَالِي

من الحب إلى الزهد :

وحدث أبو العباس : أحمد بن يحيى ثعلب ، قال :

كان أبو العتاهية قد أكثر مسألة الرشيد فى (عُتبة) ـ فوعده بتزويجها، وأنه سيسألها فى ذلك فإن أجابت جهَّزها له وأعطاه مالًا عظيماً . ثم إنّ الرشيد سنح له شغل استمرّ به ، فحجب أبو العتاهية عن الوصول إليه. فدفع إلى (مسرور) الكبير ثلاث مراوح، فدخل بها على الرشيد وهو يتبسم ، وكانت مجتمعة ، فقرأ على واحدة منها مكتوباً :

ولقد تنسّمتُ الرِّياح لحاجتى — فإذا لها من راحَتَيْكَ شميمُ

فقال الرشيد : أحسن الخبيثُ . إذنْ . . علىّ بالثانية . وكان مكتوباً عليها :

أعْلَقْتُ نفسىَ من رجائكَ مالَهُ — عَنَقٌ يَحُثُّ إليكَ بى ، ورسيمُ

فقال الرشيد : علىّ بالثالثة ، وكان مكتوباً عليها :

ولرُبَّما استيأَسْتُ ، ثمّ أقولُ : لا — إنّ الذى ضمن النجاحَ كريم

فقال الرشيد : قاتله الله، ماأحسن ماقال، ثم دعا به، وقال له : قدضمنت لكَ ياأبا العتاهية، وفى غدٍ نقضى حاجتَك إن شاء الله ، وبعث إلى (عُتْبَةَ) وقال لها : إن لى إليك حاجة ، فانتظرينى الليلة فى منزلك .

فأكبرت (عتبة) ذلك وأعظمته ، وصارت إليه تستعفيه ، فحلف ألّا يذكر لها حاجته إلا فى منزلها .

فلمّا كان الليل سار إليها ومعه جماعة من خواص خدمه ، فقال لها : لستُ أذكر حاجتى أَو تضمنين قضاءها ؟ قالت: أنا أَمَتُكَ ، وأمرك نافذٌ فىّ .. فيما خلا أمر أبى العتاهية ، فإنى حلفت لأبيك رضى الله عنه ـ بكل يمين يحلف بها برٌّ وفاجر . وبالمشى إلى بيت الله الحرام حافية ، كلّما انقضت عنى حجّةٌ وجبت علىّ أُخرى ، لاأقتصر على الكفارة ، وكلّما أفدتُ شيئاً تصدّقت به ، إلّا ما أصلّى فيه .

وبكت بين يديه ، فرقّ لها ورحمها ، وانصرف عنها .

وغدا عليه أبو العتاهية، فقال له الرشيد : والله ما قصرت فى أمرك، ومسرور وحسين ورشيد وغيرهم شهود لى بذلك . وشرح له الخبر .

قال أبو العتاهية : فلما أخبرنى الرشيد بذلك، مكثت مليًّا لاأدرى أين أنا قائم أو قاعد؟ قلت : الآن يئست منها إذ ردّتك ، وعلمت أنها لا تجيب أحداً بعدك .

ثم لبس أبو العتاهية الصوف ، وتزهّد ، وقال فى ذلك شعراً كثيراً ، منه قوله :

قطّعت منك حبائلَ الآمال ... وحططتُ عن ظهر المطىِّ رحالِى
ووجدتُ بردَ اليأْس بينَ جوانحى ... فغنيْتُ عن حِلٍّ وعن تَرْحَالِ

وروى أبو سَلَمَةَ الغَنَوِىّ أنه قال لأبى العتاهية : ما الذى صرفكَ عن قول الغزَل إلى قول الزُّهد ؟ فقال أبو العتاهية : إذن والله أُخبرُكَ ، إنى لما قلت :

اللهُ بينى وبينَ مولاتى ... أبدتْ لى الصدّ والمَلالاتِ
منحتُها مهجتِى وخالصتِى ... فكان هجرانُها .. مكافاتى !
هيَّمَنِى حبُّها ، وصَيَّرنى ... أُحدوثةً فى جميع جاراتى

رأيت فى المنام تلك الليلة ، كأنّ آتياً أتانى فقال : ما أصبت أحداً تدخله بينك وبينَ عُتبة ، يحكم لك عليها بالمعصية إلا الله تعالى ؟! .. فانتبهت مذعوراً ، وتبت إلى الله تعالى من ساعتى من قول الغزل .

مَعِى بيْنَ أَضْلُعِى :

المحبّة هى بذلُك المجهود فيما يرضى الحبيب[1] . وقيل : هى سكون بلا اضطراب ، واضطراب بلا سكون . يضطرب القلب فلا يسكن إلا إلى محبوبه . ولا يزال يضطرب شوقاً إليه حتى يسكن عنده . وهذا معنى قولهم : هى حركة القلب على الدوام إلى المحبوب ، وسكونه عنده . وقيل : هى مصاحبة المحبوب على الدوام . كما قيل :

ومن عجبٍ أنّى أَحِنُّ إليهمُ ... وأسألُ عنهُمْ مَن لقيتُ وهم مَعِى
وتطلبهم عينى وهُمْ فى سوادِها ... ويشتاقُهمْ قلبى وهُمْ بين أَضْلُعِى

يرى الفؤاد الروحين يمتزجان :

وقال ابن الرّومى :

أعانِقُهَا والنّفسُ بعدُ مشوقَةٌ ... إليها . وهل بعدَ العِنَاق تَدَانِ ؟
وأَلْثِمُ فاها كى تزولَ صبابتى ... فيشتدُّ ما عندِى من الخفقَانِ
ولم يكُ مقدارُ الذى بى من الجوى ... ليشفيَهُ ما ترشف الشفتانِ
كأنّ فؤادي ليس يشفى غليلَهُ ... سوى أن يَرَى الروحينِ يمتزجانِ

---

(١) فى روضة المحبين ونزهة المشتاقين ص ٢٩ .

لئن ساءنى لقد سرنى :

وقال عبد الله بن الدمينة :

ولو قُلتِ : طأ فى النَّارِ، أَعلمُ أَنَّهُ   رضاً لكِ أَو مُدْنٍ لنا من وصالِكِ
لَقدَّمْتُ رجلى نحوها ... فوطئْتُهَا   هُدًى منكِ لى، أو ضِلَّةً من ضَلالِكِ
لئن ساءنِى أن نِلْتِنى بمَسَاءَةٍ   لقد سرَّنى أَنِّى خطرتُ ببالِكِ

العشق عفّة ونزاهة :

قال الشاعر :

إذا كان حظُّ المرءِ ممَّنْ يُحبّهُ   حراماً ، فحظِّى ما يحِلُّ ويَجْمُلُ
حديثٌ كماء المزنِ بين فصولهِ   عتابٌ به حُسْنُ الحديثِ يُفَصَّلُ
ولثمُ فم عذب اللّثاتِ ، كأنَّما   جناهن شهدٌ فُتَّ فيه القَرَنْفلُ
وما العشقُ إلّا عفّةٌ ونزاهةٌ   وأُنسُ قلوبٍ أُنْسُهُنَّ التَّغَزُّلُ
وإنّى لأستحيى الحبيبَ من الّتى   تُريبُ ، وأدعَى للجميل فأجمَلُ

الطَّرْفُ رسُولٌ رائدٌ للقلب :

قال الأصمعى : رأيت جارية فى الطَّواف كأنّهَا مهاة ، فجعلتُ أَنْظرُ إليها وأملأُ عينى من محاسنها ، فقالت لى : ياهذا ما شأنك ؟ قلت : وما عليكِ من النظر ؟ فأنشأت تقول :

وكنتَ متى أرسلتَ طرفَك رائداً   لقلبِكَ يوماً ، أَتعبَتْكَ المَنَاظِرُ
رأيت الذى لا كلّه أنتَ قادرٌ   عليه ، ولا عن بعضِه أنتَ صَابِرُ

وقال الفرزدق :

تزوّدَ منها نظرةً لم تدعْ لهُ　　فؤاداً ولم يشعُرْ بما قد تزَوَّدَا
فلم أرَ مقتولًا ، ولم أرَ قاتلًا　　بغير سلاحٍ مثلها حين أقصدَا

وقال آخر :

ومن كان يؤتى من عدوّ وحاسدٍ　　فإنّى من عينى أُتيتُ ومن قَلْبى
هما اعتورَانى : نظرةً ثمّ فكرةً　　فما أبقيَا لى من رقادٍ ولَا لبِّ

وقال ابن المعتزّ :

متيّمٌ يرعَى نجومَ الدُّجىٰ　　يبكى عليه رحمةً عاذلُه
عينى أشاطتْ بدمى فى الهوى　　فابكوا قتيلًا بعضُه قاتلُه

وقال الأرّجانى :

تمتَّعْتُمَا يا مُقْلَتَىَّ بنظرةٍ　　وأوردتما قلبى أمرَّ الموارِدِ
أعيْنَىَّ كُفَّا عن فؤادى فإنَّهُ　　من الظُّلم سَعْىُ اثنين فى قتْلِ واحدِ

وقال آخر :

عاتبتُ قلبى لمَّا　　رأيتُ جِسمى نحيلَا
فألزمَ القلبُ طرفِى　　وقال : كنتَ الرَّسُولَا
فقال طرفى لقلبى　　بل كنتَ أنتَ السَّؤُولَا
فقلت : كُفَّا جميعاً　　تركتمانى قتيلًا !

لذةُ الحبّ كلّها :

قال الشيخ شمس الدّين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن قيِّم الجوزيَّة :

« ليس للقلب والرّوح ألذّ ولا أطيبُ ، ولا أحلى ولا أنعم ، من محبَّة الله ، والإقبال عليه ، وعبادته وحده ، وقرّة العين به ، والأُنس بقربه ، والشوق إلى لقائه ورؤيته . وإنّ مثقال ذَرَّة من هذه اللذَّة لا يُعْدَل بأمثال الجبال من لذَّات الدنيا » .

وقال بعض العارفين : « مَن قرَّتْ عينهُ بالله قرَّتْ به كلُّ عَيْن . ومن لم تقرَّ عينهُ بالله تقطّعتْ نفسُه عَلَى الدُّنيا حسرات ، ويكفى فى فضل هذه اللذّة وشرفها أَنَّها تخرج من القلب أَلَمَ الحسرة على ما يفوت من هذه الدنيا ، حتى إنه لَيتألَّم بأعظم ما يلتذّ بها أهلُها ويفرّ منه فرارهم من المؤلم . وهذا موضعٌ ـ الحاكم فيه الذَّوق لا مجرّد لسان العلم » .

وكان بعض العارفين يقول : مساكين أهل الدُّنيا ، خرجوا من الدنيا ولم يذوقوا طيب نعيمها . فيقال له : وما هو ؟ فيقول : محبَّةُ الله والأُنس به والشّوق إلى لقائه ، ومعرفة أسمائه وصفاته .

وقال آخر : والله إنه ليمرُّ بالقلب أوقات أقول فيها : إن كان أهل الجنّة فى مثل هذه الحال ، إنهُم لفى عيشٍ طيّبٍ . وأنتَ ترى محبَّةَ من محبّتهُ عذاب القلب والروح كيف توجب لصاحبها لذَّةً يتمنّى معها أنه لا يفارق من أحبّه . كما قال شاعر الحماسة :

تشكّى المحبُّون الصَّبابةَ لَيْتَنِى   تحمّلْتُ مايلقوْن من بينهم وَحْدِى
فكانت لقلبي لذَّة الحبّ كلّها   فلم يلقها قبلى محبٌّ ولا بعدى !

أَحْسَنْتِ زِيدِي :

قال عبد الله بن المبارك : عشق هارون الرشيد جاريةً من جواريه ، فأرادَها ، فقالت : إنَّ أباكَ مسَّنى . فشغف بها ، وقال فيها :

أرى ماء وبى عطَش شديدٌ   ولكن لا سبيلَ إلى الوُرُودِ
أما يكفيكِ أنَّكِ تملكينى   وأنَّ النـاسَ كلهمُ عَبيدِى
وأنَّكِ لَوْ جهدْتِ على تلافِي   لقلتُ من الرِّضَا : أحسنتِ زيدِى

لَذَّةُ اللقاء شفاء :

وذكر العتبي أنّ شابًّا من ولد عثمان ، وشابًّا من ولد الحسين، خرجا يريدان موضعاًلهما، فنزلا تحت سَرْحَةٍ ، فأخذ أحدهماورقة فكتب عليها :

خَبِّرِينَا ـ خصصتِ بالغيث يا سَرْ   حُ ، بصدقٍ ، والصّدق فيه شفاء

وكتب الآخر :

هل يموتُ المحبُّ من أَلَمِ الحُـ   بِّ ويشفى من الحبيب اللقاء

ثمّ مضياَ ، فلمَّا رجعاَ وجدا مكتوباً تحت ذلك :

إنّ جهلًا سؤالك السَّرْحَ عما   ليس يوماً عليك فيـه خفاء
ليس للعاشق المحبِّ من الحُـ   بِّ سوى لَذَّةِ اللقاء شفاء

* * *

دعاء فى الطواف :

وقال أبو المنجاب : رأيتُ فى الطواف فتًى ، نحيف الجسم، بيِّنَ الضّعف، يلوذ ويتعوّذ ويقول :

وددت بأنّ الحبّ يجمع كُلّهُ   فيقذفُ فى قلبى ، وينغلقُ الصّدْرُ
فلا ينقضى مافى فؤادى من الهوَى   ومن فرحى بالحبّ أو ينقضى العُمْرُ

فقلت : يا فتى ، ما لهذه البنية حُرمةٌ تمنعك عن هـذا الـكلام ؟ فقال : بلَى والله ، ولـكنّ الحبَّ ملأ قلبى بفرح التذكّر ، ففاضت الفـكرة فى سرعة الأوبة إلى من لا يشذّ عن معرفة ما بى . فتمنّيتُ المنَى . والله ما يسرُّنى بما فى قلبى منـه ما فيه أمير المؤمنين من المُـلْك . وإنى أدعو الله أن يثبته فى قلبى عمرى ، ويجعله ضجيعى فى قبرى ، دريتُ به أو لم أَدْرِ . هـذا دعائى ، أو أنصرف من حجّتى . ثم بكى . فقلت : ما يبكيك ؟ قال : خوف ألّا يستجابَ دعائى ، وله قصدت ، وفيه رغبت !

***

محبة الأعداء :

من الـكلمات المأثورة عن السيّد المسيح عليه السلام قوله : « أَحِبُّوا أعداءَكُمْ » .

وقال دِعبل الخزاعى :

أشبهتِ أعدائى فصرتُ أحبّهم   إذ كان حظّى منكِ حظِّيَ منهُمُ
أَجِدُ الملامَةَ فى هواكِ لذيذةً   حبًّا لذكرِكِ فلْيَلُمْنِى اللُّوَّمُ

وقال آخر :

مَن كان يشـكر للصّديق فإنّـنى   أحبُو بصالحِ شُكْرِىَ الأعداءَ
هم صيّرُوا طَلَبَ المعالِى دَيْدَنى   حتى وطئتُ بنَعْلِىَ الجـوزاءَ
ولرّبما انتفع الفتى بعـدُوِّهِ   والسُّمُّ ـ أحياناً ـ يكون شفاءَ

وقال آخر :

عِداى لهم فضــلٌ علَىَّ ومِنَّةٌ   فلا قطع الرحمنُ عنى الأعادِيَا
همو بحثُوا عن زَلَّتى فاجتنبتُها   وهم نافسونى فاكتسبتُ المَعالِيَا

وقال أحد الشعراء :

سررتُ بهَجْرِكِ لمّا علمـ   ـتُ أنَّ لقلبك فيـــه سرورَا
ولولا سرورك ما سَرَّنى   ولا كنتُ يوماً عليــه صبورَا

المصادر والمراجع

جميع المصادر والمراجع مأخوذة من كتب مطبوعة ومخطوطة من رصيد الخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية وهى :

١ العقد الفريد

٢ خلاصة الأثر

٣ أمالى أبى القاسم الزجاجى

٤ الإسعاف شرح شواهد الكشاف

٥ المضاف والمنسوب

٦ الحيوان للجاحظ

٧ نفح الطيب

٨ وفيات الأعيان لابن خلكان

٩ خزانة الأدب للبغدادى

١٠ لوعة الشاكى ودمعة الباكى للصفدى

١١ طوق الحمامة فى الألفة والألاف

١٢ سبحة المرجان

١٣ شرح شواهد التحفة الوردية

١٤ عيون التواريخ

١٥ خاص الخاص للثعالبى

١٦ مخطوط رقم ٦٤٨ شعر تيمور

١٧ أمالى أبى على القالى

١٨ التبريزى على الحماسة

١٩ سحر العيون

٢٠ فوات الوفيات

٢١ اليتيمة للثعالبى

٢٢ بغية الوعاة

٢٣ كتاب الترقيص ضمن كتاب اتفاق المبانى وافتراق المعانى

٢٤ إرشاد الأديب

٢٥ الأغانى

٢٦ العزيز المحلى

٢٧ علم الدين لعلى باشا مبارك

٢٨ الروض الأنف

٢٩ الكامل لابن الأثير

٣٠ بدائع الفوائد

٣١ روضة الأعيان للتراجم

٣٢ روضة المحبين ونزهة المشتاقين

فهرس

كتاب الحب والجمال عند العرب